العائلة

نسمة عاطف

دار الكنزي النشر والتوزيع

دار الكنزي للنشر والتوزيع

العائلة

تأليف: نسمة عاطف

تصحيح لغوي : إسراء جمال

تصميم غلاف : إسلام مجاهد

إشراف عام: محمد صلاح شديد

إيناس الدسوقي

رقم الإيداع: 26907 / 2016

الرقم الدولي: 3- 12 – 6599 – 977 - 978

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: يناير 2017

All Rights Reserved

Alkanzy for Publishing and Distribution

+2 01146312878

Alkanzy.co@gmail.com

Facebook.com/Alkanzy.com

إهداء

اهداء إلى أسرتي الحبيبة .

أبي وأمي وأخوتي (طارق، لبنى، لاميس، ماريهان) .

إلى الصديق العزيز (معتز فهمي) الذي حارب من أجل صدور هذا العمل أكثر مني شخصيا .

إلى أخي العزيز طلال الشرع أشكرك على مساعدتك الدائمة .

إلى (آية علي، نورا أشرف، وسام عبد الوهاب، وفاطمة بدوي) جزيل الشكر لكم على دعمي المستمر .

إلى الأصدقاء الأوائل الذين قرأوا الرواية قبل صدورها ورقيا وأعطوني الأمل ..... د/ أحمد قدري، توفيق البعثي، عبد الرحمن الرزاقي، معتز محمد، حمزة القاضي .

وتحية عطرة لكل متابعي صفحة الكتابات على موقع التواصل الإجتماعي.

أخيرا وليس آخرا ، إليك أيها القارئ، يا من ستجد الغلاف مريباً ، واسم الرواية مبتذلا ،وكاتبتها مجهولة الهوية، وقررت أن تجازف وتقرأها ، أتمنى ألا أخذلك ، وأن تنال إعجابك .

نسمة

شكر واجب

إلى الأخ العزيز اياد العطار مؤسس موقع كابوس .

إلى العزيزة وسام عبد الوهاب مؤسسة جروب كلمات .... إلى كل أعضاء الجروب .... نقد ما أقدمه أفادني للغاية .

إلى جروب جانب النجوم أول مكان أعطاني مساحة للكتابة .... إلى أعضاء جانب النجوم ..... أول من دعمني .

أصدقائي وأخوتي في سادة جانب النجوم ..... لولا وجودكم بجانبي لما جازفت بنشر أعمالي .

شكرا جزيلا

نسمة

الفصل الأول

جلست حماتي المستقبلية لتعني بجروح وجهي، بينما أنا بعدي في صدمة مما حدث. جاء حماي هرعًا ليطمئن علي هو وأبناؤه الثلاثة، بينما تركتني بسنت لتدخل غرفتها. كنت قلقًا عليها. هل هي مصابة؟

- إيه اللي حصل يا ابني؟

قالها حماي بينما زوجته بعدها تضع المطهرات على جرح نازف في مقدمة رأسي. يقتلني الصداع، لا أعرف هل من الضربة، أو لأنني ولأول مرة في حياتي أخلع نظارتي الطبية لبضع ساعات!

- مش عارف.. ناس ثبّتونا، خطفونا.. تقريبًا كانوا عايزين فدية بس احنا هربنا (دوار شديد).

كيف استطاعت بسنت أن تخرج بي من ذلك الموقف؟ خرجنا لنجد سيارتي مركونة، لم يكن هدفهم سرقة السيارة! كيف؟

- أنا هبلّغ البوليس.

قلتها وأنا أحاول أن ألتقط هاتفي، الذي نجا هو الآخر من الخطف، لأجد يد حماي تسارع لتمسك به قبلي: انت لسه مبلّغتش؟

توترت لرد فعله. لماذا يبدو الجميع بهذا الهدوء، كأنهم اعتادوا ما حدث؟ لماذا كانت بسنت هادئة ثابتة كأنها مرت بما مررنا به قبلًا؟ أمها تجيد تضميد الجروح وخياطة الجرح النازف، وكل هذا الهدوء. للحظة شعرت بالهلع الذي جعلني أنهض محاولًا أن أبدو طبيعيًا..

– طيب يا عمو أنا اتأخـ...

وجدت أربع مسدسات مصوبة إلى رأسي في لحظة..

– اقعد يا علي..

قالها حماي بهدوء، في حين أن حماتي راحت تلملم أدواتها الطبية، وإن بدا عليها الضيق. توقفت للحظة قبل أن تغادر الغرفة..

– حسين.. أنا لسه منضفة السجاجيد.. من فضلك يا تاخده بره يا في الجراش.. بس ابقى استخدم المشمع.

الفصل الثاني

لم أكن يومًا مؤمنة بالحب من أول نظرة، لكن في تلك اللحظة التي خلع فيها نظارته لينظفها، عرفت أن علي هو سوبر ماني!

* * *

جلست على السرير مرتجفة، ألمٌ قاتل في كتفي. لابد أنه خلع! أتحامل على نفسي منذ خرجت من ذلك المخزن، تاركة أمي تعني بجروح علي..

– آآآآآه...

أعض على شفتيّ ألمًا. لا أستطيع أن أتنفس دون أن أتألم!

قدّرت أنه سيرحل وستأتي أمي لتساعدني. أعرف أنه بخير. ما أخشاه أنه لن يصبح كذلك بعد اليوم. من استهدفني سيستهدفه حتمًا. لم أعرف يومًا معنى لكلمة "نقطة الضعف"، إلا عندما تم اختطافنا. أعرف أن الأمر يبدو معكوسًا، لكنني لا أستطيع أن أفكر أو أتصرف بشكل مختلف. سأفتك بمن يحاول أن يؤذيه!

دخلت أمي لتسأل إن كنت بخير، فأخبرتها وأنا أحاول أن أتماسك أن كتفي مخلوع. راحت تتحسس كتفي الأيسر كأنها تتأكد مما هي بصدد فعله. سألتها إن كان علي قد غادر، فأخبرتني أن أبي أخذه إلى الجراش!

تملصت من يدها هرعًا للخارج، لأجد أبي يسد طريق الخروج! شعرت بالهلع للحظة. هل أنهاه بهذه السرعة؟ سألته بتوتر: بابا هو انت قتلته؟

لم يجب، ظلّ ينظر إلي بثبات من يفكر فيما هو قادم..

– انت قتلت علي؟ قتلته؟

مرة أخرى لم يجب! عدم إجابته أكد لي أنه تخلص منه! فقدت أعصابي رغم ألمي، لأصرخ فيه أنه قاتل! الحقيقة أن الأمر كان عاديًا بالنسبة إلينا، لكنها المرة الأولى التي أصرّح بها في وجهه!

– انت قاتل! انت قتلته عشان بتكرهه! انت ما صدقت لقيت فرصة عشان تخلص منه!

أمسكني من كتفي المخلوع ليلقيني إلقاءً إلى الحائط خلفي! صرخت ألمًا، بينما هو ما زال ممسكًا بكتفي. تراجعت أمي في توتر، بينما ظهر يحيى أخي الأكبر خلف أبي. أعرف يقينًا أنه لن يساعدني. الفوهة الباردة تلتصق بجبهتي، بينما يد أبي التي كانت تمسك بكتفي تركتها لتمسك بعنقي، مثبتًا إياي إلى الحائط..

– انتي أكبر غلطة غلطتها في حياتي! ما مرتش عليا لحظة من يوم ما اتولدتي إلا واتمنيت إني أخلص منك! أعتقد إن ده الوقت المناسب إني أصلح الغلطة دي!

الفصل الثالث

الأب كثيرًا ما يعرف أكثر، أما في حالتي.. فأنا دائمًا أعرف أكثر!

* * *

– بنت!

قالتها إلهام بسعادة، ضامة إليها الفتاة بحب..

– بنت!

ابتسمتُ رأفة بها، وإن كنت شعرت أن الأرض قد اهتزت حرفيًا تحت قدميّ!

فتاة؟ هذه مصيبة! كثيرة المشاكل التي تتسبب بها فتاة لأب مثلي. رحت أسأل الطبيب في محاولة مني لأعرف إذا ما كانت صحيحة. أخبرني أنها ضعيفة للغاية، وأنها بحاجة للكثير من الرعاية كي تحيا.

كرهتها! كرهت تمسكها بالحياة، بالبقاء تحت اسمي وتحت حمايتي. توقعت أن تفنى فأخلفت توقعاتي! هي الوحيدة التي أخلفت توقعاتي! أذكر أولى محاولاتي لقتلها.. كانت أكبر سنًا، ممسكة ببرونة مملوءة باللبن ترضعها في نهم. سحبت البرونة بينما فمها بعده ممتلئًا باللبن. أمسكت بأنفها الصغير بين أصابعي، كاتمًا فمها ببقية يدي لتختنق. راحت تصرخ بصوت مكتوم، تتملص بجسدها الصغير، لاطمة يدي بكفيها الدقيقين. رأيت الحياة تتسرب منها، إلى أن سكنت. سحبت يدي بهدوء، وخرجت من الغرفة لأسمع صراخ إلهام، تهزها بهلع وتبكي، تحاول إنعاشها. وقفت متظاهرًا بالاهتمام، راسمًا على وجهي تعبير حزن، لأسمعها تشهق، تسعل، تبصق اللبن، تصرخ بكاءً؛ بينما احتوتها إلهام مقبّلة رأسها بإرتجاف..

– الحمد لله أنها بخير.

قلتها خارجًا من الغرفة.

– حسين..

قالتها إلهام بصوت آمر وهي ترفعها على كتفها: لو فكرت تمسها مرة تانية، هخلّيك تتمنى الموت وما تطولوش!

لم أفكر في الإنكار، فهي أذكى من أن تصدق كذبي! لم أفكر في تكرار التجربة، فأنا أذكى من أن أتحدى إلهام. إذا ما كان هناك شيء في هذه الدنيا يخيفني، فهي إلهام، وقد شملت الفتاة بحمايتها!

تكبر أمامي فأرى المأساة تكتمل. جميلة. لم تكن إلهام جميلة، بل كانت جذابة. لذا عندما أنظر إلى بسنت، أرى الكارثة القادمة. أجذبها لأجبرها على خلع ذلك الفستان والتخلص من ذلك الحلق، تتمايل بخصلات شعرها بدلال طفولي، فأجذبها لأجزه جاعلًا منها فتًى مليحًا! تزداد جمالًا فأزداد ضيقًا وقمعًا! أعرف أنني كنت قاسيًا معها. كنت أتوقع من جفاء حياتها، أن تتقوقع على نفسها وتنزوي، إلا أنها مرة أخرى تحالف ما أفكر فيه، تكبر لتصبح متحدثة لبقة. كان ذكاؤها يفوق سنها. أصبحت متمردة بذكاء، فلم تكن يومًا صدامية. كانت تجبرني على تنفيذ رغباتها بصبر، إلا أن الأمر الوحيد الذي احتفظت فيه لنفسي بالتصرف الكامل هو زواجها. كثيرون طلبوها، إلا أنني رفضت. كنت أعرف أنها لعبة مصالح، أنا أول من سأتضرر منها. لو أعطيتها لابن عائلة سأكتسب لنفسي عداوة الباقين. لذا فزت بعداوة الجميع لفترة، ثم مر الأمر بسلام.

إلا أن ظهر علي في الصورة، زميل العمل. كان يدعي الثبات أمامي، بينما أنا أعرف يقينا أنه أحمق. ما أذهلني حقًا أنها كانت حمقاء هي الأخرى وتمسكت به، تمسكت به بطريقة جعلتني أرغب في تمزيقها. لكن هذه المرة لم تكن إلهام من تصدت لي وحدها، كان أخوتها الثلاثة كذلك! هي بعيدة عن عملنا. لا يجب أن تتأثر حياتها بنا! هراء! كل من يتعامل معي يتأثر بما أفعل، فلماذا ستُستثنى هي وزوجها؟

اختيار خاطئ. أنظر إليها غير راضٍ عنه. اختيار سيجلب الوبال على هذه الأسرة. أنظر إليه باشمئزاز. اختيار سأدفع أنا ثمنه! لذا وعند أول احتكاك له مع حياتنا حاول الفرار، رباه لو رأته تلك الهائمة وهو يبكي من أجل حياته! كنت سأنتهي منه

وانتهى الأمر. هو وحيد تمامًا، لن يفتقده أحد، إلا أنني فوجئت بردة فعلها! خرجت عن شعوري للحظة، لأجدني مثبتًا إياها إلى الحائط، بينما فوهة مسدسي مصوبة إلى جبهتها. بعدها متمسكة به. حسنًا، سأريكِ كيف يبدو فارسك.

أرخيت مسدسي للحظة..

هو لسه عايش.. شوفيه تحت.. لو قبل إنه يكمل معاكي بعد ليلة امبارح، أنا هرحّب بيه.. لو رفض، عليكي تختاري.. حياتك أو حياته!

الفصل الرابع

تتميز فترة الخطوبة بالحب، بالكلام المعسول، بمحاولة الشاب الإيحاء بأنه مستعد للتضحية بحياته من أجل حبيبته.

ما هو يا حيوان منك ليه، لو اتحطّيت في المواقف اللي مريت بيها، هتفكر ألف مرة قبل ما تنطق نص كلمة!!

* * *

سحبني هشام ومازن إلى الجراش تحت تهديد السلاح. كنت أرتجف غير مصدق. وجدت يحيى في الجراش ينتظرني هو وحماي..

– هو في إيه يا عمي؟ هو أنا عملت إيه؟

– كل خير يا حبيب عمك!

قالها حماي بابتسامة ساخرة، في حين تركني هشام ليأتي بمشمع مطوي، وبدأ في فرشه! لا هذا غير حقيقي! أشار إلي حماي بهدوء إلى البقعة المغطاة بالمشمع لكي أتحرك.

– لا! أرجوك لا.. أنا معملتش حاجة!

لكمة قاسية وجهها هشام إلى وجهي أفقدتني توازني. ربما أصبت بارتجاج في المخ كذلك. سحبني إلى المكان الذي أشار إليه حماي، بينما طعم الدم يملأ فمي. غريب أن أتقزز من طعم الدم، وأخشى أن أصاب بارتجاج في المخ، بينما حماي مقدم على قتلي. لآخر لحظة أتوقع أن ينفجروا ضاحكين على أنها مزحة، وإن كنت أعرف يقينًا أنها ليست كذلك!

– أرجوك.. أرجوك.. أنا عارف إن حضرتك مبتحبنيش.. أنا همشي وهختفي من حياتكم، مش هتشوفني تاني..

كانت دموعي تغرق وجهي وأنا أرتجف، بينما رد حماي: دي حقيقة! انت هتختفي من حياتنا..

اقترب منه يحيى ليهمس في أذنه بشيء ما، قطب حاجبيه في ضيق وغادر المكان مؤكدًا: متخلّصوش دلوقتي.. استنو لما أرجع.

لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا منتظر، لكنني شعرت أنه مر دهر. عاد حماي ممتقع الوجه، وأشار إلى أبنائه: ارموه تحت للصبح.

لم أكن أعرف أنهم يطيعون كلامه إلى هذا الحد، إلى أن تم إلقائي بشكل حرفي فيما يشبه بدروم. كان باردًا، لكن مازن عاد إلي ببطانية وطعام ومسكّن! رحت آكل وأشرب بنهم. هذه إشارة إلى أنهم قد يبقون على حياتي.

جلست أفكر فيما كان.. لماذا فكرت في الزواج؟ عشت وحيدًا طوال الثمانية والثلاثين عامًا الماضية. ماذا جدّ عليّ كي أضع نفسي في هذا الموقف؟ ماتت أمي وأنا في الخامسة، ولحقها أبي وأنا في السابعة. عشت يتيمًا وحيدًا في بيت عمي، عمي الذي قاطعني عندما بلغت السن القانونية، لأنه أراد جزءً من ميراث أمي كأجر لتربيته لي وسط أبنائه. طبعًا رفضت!

لم أفكر يومًا في النساء. حسنًا.. هذا كذب! كنت أفكر في النساء طوال الوقت، أشعر بأن شيئًا ينقصني، أتمنى أن أعيش كأي شاب مع زوجته، تزيل من على قلبي ثقل سنوات الوحدة واليتم وسوء المعاملة. تمر الأيام بلا علاقات إنسانية، أُغلق في وجهي أي أمل في الزواج، حتى لو كان صالونات. أتقوقع وأزداد وحدة ويقينًا أنني سأنزوي وحدي.

إلى أن رأيت بسنت. الحقيقة أنها كانت جميلة، ربما أجمل من أن أفكر بها. انزويت في مكتبي كالعادة، بينما أسمع الأحاديث عن ذكائها وقوة شخصيتها. تجيد التعامل بحزم من مع يتخطى حدوده. كل ما سمعته كان يؤكد بداخلي أنه لا جدوى من التفكير فيها. كيف وصلت إليها إذن؟ الحقيقة لم أفعل، هي فعلت!

صوت باب يفتح. أنهض بتوتر أمام ظل نازل، إنها هي. معلقة يدها اليسرى إلى رقبتها. شعرت بالهلع منها وعليها. كانت تبدو منهكة. دائمًا ما كانت تدهشني حيويتها. إنها المرة الأولى التي أراها بهذا الشكل.

– ازيك يا علي؟

قالتها بصوت متعَب، مشيرة إلي بيدها الحرة لأجلس. جلست على طرف الكنبة التي قضيت عليها ليلتي، لتجلس هي على الطرف الآخر. مرت لحظة سكون قبل أن تقول: أنا آسفة!

– بسنت.. أرجوكي مش عايز أسمع أي كلام.. لو تقدري خليني أمشي!

– أنا ممكن أفهمك..

– أنا مش عايز أفهم!

– يا علي...

– أنا عايز أمشي، عايز أروح.. مش عايز أعرفك تاني!

هزّت رأسها إثر صراخي فيها..

– مفهوم.. متقلقش، مش هتعرفني تاني!

هذا تهديد بالقتل؟ توترت، إلا أنها أشارت إليّ أن أتبعها. تبعتها بعد تردد، وأنا أفكر أنهم حتمًا لن يقتلونني بالأعلى؛ كي لا أؤذي السجاجيد بدمي! خرجت معي إلى سيارتي..

– المفاتيح جواها!

أولتني ظهرها للحظة..

– آه.. مفيش داعي طبعًا تتكلم مع أي حد في أي حاجة.

أدرت السيارة وانطلقت بها. نظرت إليها مرة أخيرة بينما أنا مغادر، وهي عائدة إلى الداخل. لا أدري لماذا تملكني شعور بأنها آخر مرة سأراها فيها. شعرت بالخوف عليها، إلا أنني -وأمام شعوري بالهلع من التفكير في والدها وأخوتها- زدت من ضغطي على البنزين خارجًا عن حدود منزلهم تمامًا، إلى أن أكلني الزحام.

الفصل الخامس

تعبث بسلسلة مفاتيحي، أتركك جثة مشوهة! تعبث بقلب أختي....؟

* * *

هل تعرف إحساس الأب؟ إحساس أن تمسك بكائن صغير ضعيف بين يديك نائمًا معظم الوقت، مزعجًا طوال الوقت، مبلول أغلب الوقت؟

أحببتها منذ اللحظة الأولى التي وضعتها فيها أمي بين يديّ. كنت في الخامسة عشرة من عمري. شعرت بأنها ابنتي. رزقت بفتاة وأنا مراهق. زاد إحساسي تجاهها يومًا بعد يوم، وأنا أرى جفاء أبي عليها. كان مكانه فارغًا، أخذته رغمًا عني وبإرادتي الحرة.

رأيتها تكبر يومًا بعد يوم. رفض والدي تزويجها حتى سن الثانية والثلاثين. كنت أكبر أنا الآخر دون زواج، دون أبناء، لكن الأمر لم يكن ذا أهمية كبرى بالنسبة إلي. لدي صديقة تقوم بدور الزوجة، ولديّ بسنت لتقوم بدور الابنة، إلا أنني لم أحتمل فكرة أن تموت وحيدة. فكرت أن تنزوي كالزهرة دون أن يشمها أحد. أردت أن أرى أبناءها، أبناء أختي.. أحفادي!

علي بدا مختلفًا في نظرها. لم يرض عنه أبي. حسنًا، هو لن يرضى عن أحد أبدًا. لذا، جمعت أخوتها لأخبرهم أنني سأحقق ما تريد.. وقد كان!

كان حقًا مختلفًا عنا، بعيدًا عن عالمنا. لذا وعند أول احتكاك له بعالمنا، فزع. هذا أمر مفروغ منه. قرر الفرار تاركًا إياها تحت رحمة أبي. هذا أمر غير مقبول بالنسبة إلي! طبعًا لم يقتلها أبي، لم أكن لأسمح له. كان قراره أن تبقى في المنزل إلى أن تموت! لن ترى النور مرة أخرى! هذا ما قتلها، هروب علي، قرار أبي..

عنيدة، مثابرة، اعتادت أن تتلقى قسوة أبي بابتسامة؛ إلا أنني للمرة الأولى أشعر بأنها كسرت. تجلس في غرفتها بصمت. أحاول أن أكلمها، تحاول أمي، يحاول أخواها الآخران. تبتسم مجبرة وتعود إلى صمتها وشرودها.

لم أكن لأحتمل هذا. أنت أردت أختي، أنت أخبرتها أنك تحبها، أخبرتها أنك رجلها.، أنك ستحميها.. حسنًا، ستكون كذلك! أردت أم لم ترد!

كنت أعرف ما سأفعله. عندما اختطفه هشام من غرفة نومه قبل الفجر وأتى به مقيدًا في صندوق سيارته إلى تلك البقعة المهجورة. هذه العملية أسرية. لن أسمح بتدخل أيٍ من رجالنا. فتحت صندوق السيارة، لأجده باكيًا. جذبته لألقي به أرضًا. أزال هشام الشريط اللاصق من على فمه، بينما مازن يفتح مقدمة السيارة ليوصل بطارية السيارة بالموصل ويتركه أرضًا. جلست على مقدمة سيارتي أمامه: أنا زعلان منك أوي يا علي!

شهق بحدة وهو يتأمل موصل البطارية، عندما فهم ما أنا بصدده.

– والله ما اتكلمت يا يحيى، والله ما اتكلمت!

– أنا عارف، بس اللي مش قادر أصدقه، انت فعلًا سيبت أختي؟

نظر إلي مذهولًا وهو يتابع بعينيه الموصل الذي يمسكه مازن..

– والد حضرتك هو اللي طلب!!

أشرت إلى هشام ليوقفه، ثم ركله أسفل بطنه.. مرة.. الثانية..

– كفاية يا هشام.

قلتها ليتركه فنزل على ركبتيه، بينما استحال وجهه للأحمر من شدة الألم. نزلت إليه، أمسكت بوجهه بين يدي:

– انت قلتلها إنك بتحبها؟

هز رأسه إيجابا وهو باكٍ. أعرف أنه غير قادر على الكلام.

- يبقى عيب عليك أوي أما تسيبها.. انت هترجع تعتذرلها وتطلب من بابا يسرع إجراءات الجواز، وهتسيب الباقي عليا.

ربتت على وجهه برفق..

- أنا وافقت عليك عشان شوفتك راجل، خليك عند حسن ظني، ولا تحب.....

قلتها مشيرًا إلى الموصل.

- لا لا.. أنا هاجي، هعتذر، هقول لها إني كنت غبي، كنت خايف، مكنتش عارف أفكر!

- شاطر.. كده انت كويس.

أشرت لهشام ليعيده إلى صندوق السيارة.

- أرجوك يا يحيى.. بلاش!!

نظرت إليه للحظة..

- خلاص يا هشام.. ده جوز أختنا برضو، ما ينفعش نعمل فيه كده.. خليه معاك في العربية، وصله بيته.

تركتهم وعدت إلى سيارتي، وأنا أسمع هشام ومازن يتوعدانه بالأذى إذا تحدث لأحد، أو أبلغ الشرطة، أو أخلف وعده. ابتسمت على الرغم مني، في حين أن رأسي كان مشغولًا بالطريقة التي سأقنع أبي بها ليتقبله.. فردًا من العائلة.

الفصل السادس

زوجي العزيز..

أتفهم تمامًا رفضك لإنجاب فتاة، ضيقك من وجودها، كرهك لضعفها؛ لكن أن تجعل هدفك في الدنيا هو التأكيد على رفضك وضيقك وكرهك لها، فهذا يا عزيزي يسمى وسواس قهري بها.

* * *

اليوم أنا غير مهتمة!

أقف لأعد الطعام، أنا لا أسمح لأحد أن يعده غيري. تخبرني نعمة العاملة أنني لم أنم منذ أمس، وأنني بحاجة للراحة، فلا أهتم!

أتأكد من أن البيت أعد لليلة. أخرج لأجد الورد الذي طلبته غير الذي استلموه. أبتلع غضبي بصبر. أرتبه كيفما اتفقت.. ولا أهتم!

أهاتف هشام ومازن. كل منهما طبعًا سيصل متأخرًا كعادته. أصرخ في كليهما على حدة، وأؤكد على رغبتي في أن يصلا مبكرين، ثم أبتسم لأعذارهم الواهية.. ولا أهتم!

ما زال حسين جالسًا في شرفة غرفة النوم يتأمل اللاشيء. أعرف أنه غير راضٍ. أحاول أن أداعبه وأخرج بذلة أنيقة وكرافت. ينظر لي وعلى وجهه ابتسامة ساخرة.. فلا أهتم!

أهاتف يحيى ليؤكد لي أنه مع علي عند الكوافير. يقولها بسخرية مستترة، فأنهره أن يضايق الشاب.. ولا أهتم!

أهرع إلى بسنت الصامتة. هي أيضًا لم تعد راضية. أحممها وأعطرها بيديّ. ترتدي الفستان الأبيض الذي صممته خصيصًا لها. تصرخ ألمًا من كتفها؛ فأربت عليها برفق، وأغلق سحّاب الفستان.. ولا أهتم!

أنتهي من وضع لمساتي الأخيرة على وجهها الشاحب. أبدأ في وضع الطرحة البيضاء على رأسها، لأجدها تخفضها باكية. أجذب خصلات شعرها بغلّ. لم تفسد ما صنعته بوجهها لحسن الحظ. سأنتهي من الطرحة وأعود إلى وجهها مرة أخرى، ألف مرة إذا لزم الأمر. أتنفس بهدوء.. ولا أهتم!

من تقول لك أنها حلمت بيوم زفاف ابنتها من اللحظة الأولى التي رأتها فيها، امرأة باردة المشاعر! أنا حلمت به منذ اللحظة الأولى التي حملتها بداخلي. كنت أعرف يقينًا أنها فتاة، رغم أنني لم أستخدم السونار قط. كل لحظة قضيتها أخطط لهذا اليوم. اليوم الذي ستزف فيه إلى زوجها!

الحقيقة أنني لم أهتم لزواج أخوتها لهذا الحد. الوحيد الذي بدا جادًا كان مازن، ارتبط بفتاة جامعية، وسعى للزواج منها. رفضها حسين كالعادة، لكن مازن تمسك بها. لم أجد حلًا إلا أن أتصرف على طريقتي بعيدًا عنهم. استدرجت الفتاة ودفنتها حية في قبر تخلص فيه حسين من جثة أحد أتباعه. الجثة كانت حديثة، لم يدفنها بالمعنى المعروف، وإنما ألقاها في القبر وأغلقه. كذا فعلت مع الفتاة، إلا أنها كانت حية. جلست في سيارتي أستمع إلى صراخها وتوسلاتها. شعرت بالشفقة عليها، لكنني لم أكن لأسمح أن تدمر عائلتي؛ لذا أخرجتها في الصباح. كانت مذهولة. أخبرتها ببساطة أن تبتعد عنه وتنسى ما حدث تمامًا، وإلا فهي تعرف ما سيحدث. وطبعًا اختفت من حياتنا للأبد!

أسمع صوت السيارات تدخل. مازن وهشام ومعهم المأذون. يحيى سيتبعهم ومعه علي. يحيى ابني، ابن أبيه.. لا يشبهه، ولا يشبهني تمامًا. أخذ أفضل ما في كلانا. لذا عندما جلس مع والده ليخبره أنه اتفق مع علي أن يعود ليعتذر ويتزوج أخته، كان يقولها بلهجة تقرير المصير. لم يجد حسين بد من الموافقة، محملًا إياه النتائج! بسنت هي من اعترضت. غضبت وثارت. لم تكن غبية لتظن أن علي عائد من تلقاء

نفسه. فهمت أن يحيى هو من أجبره. للمرة الأولى تصطدم بسنت بيحيى، للمرة الأولى يصفعها! طوال حياتها مجبرة، إلا أنها للمرة الأولى تكون مجبرة بأمر يحيى. شعرت بالضيق لما حدث. يحيى أيضًا كان غاضبًا، لكنه كان يتصرف بمشاعر الأب الذي يرى ما لا يراه الآخرون. لم تعد تتحدث إليه ولا هو كذلك. وإن بقي يسألني عليها ألف مرة في اليوم!

لن يبقى الأمر هكذا للأبد! ستعود الأمور كما كانت، ليس اليوم.. اليوم أنا غير مهتمة!

أنزل لأرى أن كل شيء يجري كما خططت له. يتجاهل حسين علي.. فلا أهتم. يتهامس هشام ومازن على علي.. فلا أهتم. يحيى يضبط كرافت علي الذي يبدو متسولًا.. فلا أهتم. لا معازيم.. فلا أهتم. تتم إجراءات الزواج ببرود.. فلا أهتم. أطلب من حسين أن يُنزل بسنت، فينظر إلي شذرًا.. فلا أهتم. يتطوع يحيى ليقوم بدور والده كالعادة، فأوقفه لأرسل هشام.. ولا أهتم!

تنزل علينا بسنت. تبدو كالبدر. يرفع علي رأسه المستسلمة للأمر كله. ينظر إليها منبهرًا منقطع الأنفاس. ينهض واقفًا ليمد يده مستلمًا إياها من هشام. تتقافز السعادة بداخلي وأنا أرى كيف ينظر إليها. حسنًا هذا وهذا فقط ما حلمت به.. هذا ما أهتم له اليوم!

الفصل السابع

تستطيع المرأة أن تحب الرجل بجنون وتضحي من أجله بحياتها، إلى أن يتخلى عنها.. عندها تكون على أتم استعداد لجزّ عنقه بسكين الفاكهة!

* * *

جلست على السرير ببطء، بينما يحيى وعلي يتحدثان بخارج غرفتي. لابد أنه يعطيه الوصايا العشر للحفاظ علي أو الحفاظ على حياته!

كتفي يؤلمني بشدة. أنا بحاجة أن أخلع ذلك الفستان وأرتدي أي شيء يسمح لي بإعادة تعليق يدي إلى رقبتي. ألمها الشديد أخفيته بمسكنات. لم تكن أمي لترضى بأن أنزل بهذا الشكل. كانت لتغامر بإعادة خلع كتفي على أن أبدو مصابة! لا أفهم حقًا كيف تفكر! أجبرتنا جميعًا أن ننفذ ما تريد في تلك الليلة، فقط لتراني في الفستان الأبيض، ولم تهتم لرفض أبي ورفضي! حقًا لم أعد أريده. أشعر بالإهانة كلما نظرت إلى دبلته. أنا الفتاة التي أجبر أخوها رجل على الزواج منها!

دخل علي لأشعر به يجلس على السرير من الطرف الآخر صامتًا. يعود كتفي ليؤلمني. أيها الوغد! لو تركتك، لمزقوك، لما تأذى كتفي، لما تمزق قلبي!

أعود إلى ذلك اليوم، حيث صمم علي أن يعيدني بسيارته إلى منزلي. عربة واقفة تسد الطريق. نظر إلي بدهشة، في حين أنني فهمت. حاول الرجوع، ليجد سيارة تسد طريق العودة. طوقونا في لحظات. شعرت بالهلع عليه، وأنا أجد مجموعة رجال مسلحة تشير إلينا بالنزول، فقلت له انزل.. المقاومة هنا ستكون غباء، لن ننال سوى بعض الضرب والإهانة!

راح علي يسأل: هو في إيه؟

نجلس في سيارة فان، تحت رحمة ثلاثة مسلحين، ليسألهم مئات المرات. تمنيت أن يصمت، فأخرسه أحدهم بلكمة جعلتني ممتنة له!

تم تقييدينا في ذلك المخزن وغلقه من الخارج. تأكدت أننا بمفردنا، لأبدأ فك قيودي. لو كانوا يظنون أن ابنة حسين صلاحي ستعجز عن فك قيود يديها وقدميها، فهم حمقى!

أمام عيني علي المذهولة انتهيت وساعدته..

– هو في إيه؟

أشرت إليه أن يهدأ، وأخبرته همسًا: أكيد حرامية وعايزين فدية!

أرهفت السمع لأجد صوت أحدهم بالخارج. ركلت الباب لأستدرجه، وعدت إلى موقعي لأجلس كأني مقيدة. دخل متجهًا نحو علي طبعًا. لأخبط رأسه بعتلة حديد كانت ملقاة أرضًا. نظر إلي بغضب! اللعنة.. لم يفقد وعيه بعد!!!! خبطت مرة أخرى ليسقط. عدت لضربة ثانية، فثالثة..

– كفاية!

قالها علي بهلع..

– كده هيموت!

في الحقيقة، كانت هذه خطتي!

فتشته بسرعة لأجد سكينًا صغيرًا. أخفيته في ملابسي وأمسكت بالعتلة استعدادًا للقادم. دخل آخر ليجد العتلة في يدي، وصديقه قد صرع أرضًا! فهم ما كان، فأندفع إلي، ليعدو علي تجاهه محاولًا الدفاع عني. تفاداه بسهولة. ليرطم علي رأسه بالحائط ويسقط فاقدًا الوعي!

نظر الرجل إلي بغلّ فابتسمت. استفزته ابتسامتي. يعدو إلي مرة أخرى. تفاديته وقفزت على ظهره. أمسكت رقبته بيدي ودفعت السكين إلى مؤخرة عنقه؛ ليسقط قتيلًا هو الآخر.

أشعر بألم شديد في كتفي. لابد أنه خُلع من قفزتي مقاومةً. فتشته فوجدت مفتاح سيارة علي ومسدس.

عدت لعلي لأجده يشاهد ما حدث مذهولًا! لم يكن فاقد الوعي. أشرت إليه أن ينهض. ساعدته وأنا أتحامل على نفسي. وجدت سيارته بالخارج. ثلاثة رجال أنهيتهم بطلقات سريعة. المفاجأة كانت في صفي. قدت السيارة لأن علي فقد نظارته في المعركة. دعك من خبطة رأسه التي حتمًا أثرت عليه!

احتشدت الدموع في عيني. ليتني تركته يموت! ليتني لم أعرفه قط. شعرت بيده تتلمس يدي برفق، فسحبتها بعنف. تراجع وهو يسأل: أساعدك في حاجة؟

نظرت إليه بغل، بينما دموعي تغلبني! لا أدري ماذا حدث لي، إلا أنني هرعت خارجة من الغرفة، نازلة إلى مكتب أبي. كان يتحدث مع أخوتي في أمر العمل، إلا أنني اقتحمت المكتب، واقتحمت حضنه! ألقيت نفسي وانفجرت في البكاء. أسمعهم يتساءلون عما حدث. أشعر بيديّ أبي تطوقانني. للمرة الأولى في حياتي يحتضنني، مما زاد بكائي. لابد أنه نظر إليهم ليصمتوا! صمتٌ دام فلم أعد أسمع إلا صوت بكائي. لا أدري كم مر من الوقت حتى يرفع أبي إحدى يديه ممسكًا بوجهي، ناظرًا إلى عيني..

– مش عايزاه يا بابا.. مش عايزاه..

هز رأسه متفهمًا: خلاص خلاص.. يومين تلاتة وأخلصك منه!

الفصل الثامن

الرجل المحظوظ تأتيه الفرصة عدة مرات. الرجل المنحوس يبيت ليلته في غرفة مغلقة عليه، ومعه أمنية من الدنيا، ولا يستطيع أن ينالها!

* * *

هل نامت؟

أسمع صوت أنفاسها قد انتظم، موليّة إياي ظهرها. ما يبدو لي منها كتف مخلوع، وغضب عارم!

هل نامت؟

أنا حقًا أحبها. أنا حقًا مستعد للتضحية من أجلها. لكن ما رأيته جعلني مترددًا، جعلني خائفًا. كنت غير فاهم فخفت. فهمت فشعرت بالهلع!

هل نامت؟

أنا حقًا غير مستعد للدخول في تلك الدوامة. ظننتهم عائلة طبيعية. كان جل توتري والدها، الذي يكرهني لأنه يشعر بالغيرة على ابنته الوحيدة. والدتها التي ستتسلى بحرق دمي والقيام بدور ماري منيب، عالمة بأنه لا أم لي لتردعها عما تفعل. أخوتها القادرون على السخرية مني والتلاعب بالكلمات لإحراجي. هي.. كنت أتوقع أن تصير متحكمة، غير صبورة، مدللة.. أما هذا! هي قتلت أمام عيني من اختطفونا بدم بارد، والدها حاول قتلي، أخوتها خطفوني من غرفة نومي فجرًا ليعنفوني! هذا لم أكن أتوقعه!!

عشت طوال حياتي أتمنى الحب، لأجده معها. محظوظ من يدق الحب بابه، سعيد من يجد الحب متبادلًا؛ أما أنا، فلا محظوظ ولا سعيد!!

ترتجف. أشعر برجفتها. تبكي بصمت. يمزقني بكاؤها. أشعر بأنني آذيتها، ولكنني لا أعرف كيف. أمد يدي برفق لألمس كتفتها فتنتفض. تنهض بغضب مضيئة النور بجوارها، ثم توجه حديثها إلي بعينين تملؤهما الدموع والجنون: انت أيامك في الدنيا معدودة يا علي، ما تقللش عددها!

الفصل التاسع

المرأة: كائن خلق بذاكرة السمك لأخطائه.. وذاكرة الفيلة لأخطاء الرجال!

* * *

متى سينهيه؟ كيف سينهيه؟ هل سأتحمل حقًا أن ينهيه؟

تمضي الأيام مملة كئيبة. المفترض أنه شهر عسل، إلا أن أحدًا منا لم يشعر بذلك. هو يتمنى الهرب، أبي يتمنى قتله، أمي تتمنى أن نعيش بشكل طبيعي؛ حتى يتسنى لها القيام بواجب أم العروسة، وأنا لا أعرف حقًا ما أتمناه!

ما زلت أكن له مشاعرًا، موقنة أنه الآخر يحبني، لكن يقتلني إحساس أنه تخلى عني. أنا متفهمة موقفه، لكنني غير قادرة عن الصفح! أكرهه ولن أتخيل أن يؤذى بسببي. أبي وعدني بالخلاص منه، إلا أنني حقًا لا أريد ذلك! لعنة الله عليك يا يحيى، أنت من تسبب بما أنا فيه!

أنظر إليه من آن لآخر متفحصة. يبدو متوترًا، يحاول أن يتصرف بشكل طبيعي، إلا أن محاولاته تفضحها نظرات عينيه ورجفة يديه، وخصوصًا في وجود أبي ويحيى! ماذا فعل يحيى به؟ لا أعرف، لكن يبدو أنه كان قاسيًا معه.

الحياة الصعبة التي عشتها أصبحت أصعب. الخندق الذي دفنت فيه يبدو أضيق.. أنا حقًا غير قادرة على التنفس! لذا صرت أبكي. أنتظر حتى يغلبه النوم وأبكي بصمت. أكتم فمي بيدي حتى لا أخرج صوتًا، وأبكي حتى أتعب فأنام.

شعرت به يتحرك خلفي. تبًا! لم يعد يحاول أن يلمسني بعد أن هددته ليلة زواجنا. نهضت إلى الشرفة فوجدته يتبعني. جلست على أقرب كرسي. الجو بارد. أمسح دموعي بيدي، لأجده يمسك برأسي ويدفنه في صدره! حاولت المقاومة، إلا أنني حقًا لم أستطع. أبعدته بضعف..

– أنا عارفة انت جاي ورايا ليه.. انت خايف حد يسمعني!

بدي عليه التوتر، ونظر باتجاه شرفة أبي، ثم جذبني للداخل مغلقًا الشرفة خلفه..

– لا! مش هو ده السبب.. أنا قمت عشانك.. ده ميمنعش إن فعلًا مينفعش حد يشوفك معيطة!

ابتسمت بالرغم مني. أعرف أنه صادق. وعلى الرغم من ذلك حاولت إبعاده عن طريقي للعودة إلى السرير لأنام، إلا أنه تمسك بمكانه. أمسك وجهي بين يديه..

– مش هاممني إني أموت بكرة، بس أحب أقول لك إني بحبك بجد.

الفصل العاشر

قد يرى الجميع أن الرجل مناسب للمرأة التي يرغب فيها.. إلا أباها، سيظل يراه أقل من المتوقع!

* * *

أنا أكرهه!

أكره اسمه، وشكله، وصوته، وسخافته!

أنا أكرهه!

أكره ضعفه، ومسكنته، وقدرته على الضحك على ابنتي و.... الفوز بقلبها!

لم تعد ترغب في الخلاص منه. نظرة واحدة فهمت منها أنها أصبحت راضية عنه، بل أنها أصبحت زوجته!

كيف فعلت هذا؟ كيف تسلم قلبها وعقلها وجسدها لذلك الأحمق؟ كيف تفعل ذلك بي؟ لماذا لم تفهم أنني حقًا أردت لها الأفضل. لربما كنت أرفض فكرة زواجها، ليس خوفًا من أن تتأثر علاقات عملي، ولكن لأنه حقًا لا يوجد شخص يرقى في نظري للفوز بها. فإذا بها تلقي نفسها في أول صفيحة قمامة! لو لم تكن تحبه، لشعرت بأنها تتحداني، ولأنها تحبه، أشعر بأنها تتحداني!

هو يبدو سعيدًا، هي تبدو سعيدة، إلهام سعيدة، يحيى سعيد، وأنا أحترق!

لن أقتله. هذا سيؤذيها، وأنا لا أتمنى هذا. أنا أعرف أنها تظن أنني أقضي وقت فراغي في التخطيط لتكدير صفو حياتها، لكنها حقًا حمقاء. هي ابنتي.. أنا لا أكرهها، أنا فقط أتمنى الخلاص منها! هذا يبدو أفضل. منذ اللحظة الأولى لوجودها وأنا أشعر بالخطر، بالقلق.. لا تغفل عيني حتى أرى الكوابيس تلاحقني، كوابيس ما

فعلته مع نساء خصومي؛ لذا بدا الخلاص منها أفضل من العيش بقلقها. لكن للأسف.. تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن!

أخبرني أن إجازته انتهت، وأنه يستعد للعودة لعمله. كنا نتناول طعام الإفطار. حسنًا أنت جلبت هذا لنفسك يا عزيزي.. لن تعود لعملك.. هكذا كان قراري. بل ستعمل معي. من الآن سيكون عليك العمل في مجال العائلة!

الفصل الحادي عشر

تظن أنك تفهم النساء؟ أنت أحمق إذن!

تظن أنك تفهم الرجال؟ أنت أكثر حمقًا!

تظن أنك تفهم عائلتك؟ أيها الغبي!! إنهم نساء ورجال!!

* * *

لماذا تثرثر نسرين؟

أريح رأسي للخلف، محاولًا الهروب من صداعها. لن تهدأ قبل أن أظهر لها الوجه الآخر! لماذا تصمم على هذه التصرفات المستفزة؟ أخبرتها مليون مرة أنني أكره أن تطلب مني أي شيء قبل العلاقة أو بعدها، هذا الأمر يشعرني بأنها عاهرة تتفق على أجرها أو تناله. هل استمعتْ لي؟ هل نفّذت ما أطلبه منها؟ طبعًا لا! ها هي تتحدث وتتحدث للمرة الألف في ذات الأمر. هذه المرة تتكلم بثقة بعد زواج بسنت، كأن عدم زواج بسنت هو ما كان يمنعني!

لماذا لا تفهم أنني غير راغب في الزواج؟ أنا أكره التصنع! أكره أن أجلس مع فتاة تمثل بأداء الأوسكار كونها رقيقة خجولة! لماذا تفتعل الفتيات الرقة بذلك الشكل المقزز؟ لماذا يخفضن صوتهن ويهمهمن في الكلام، في حين أن الواحدة منهن قادرة على اقتلاع مقلتي عينيك إذا أرادت؟ بسنت أختي جميلة، بل هي أجمل من رأت عيني.. قاتلة، باردة المشاعر إن أرادت، وهذا جزء من جمالها.. حازمة، حاسمة، قائدة.. لو لم أكن أنا، لقادت أخوينا في عمل أبي!

ما زالت نسرين تتحدث.. أووووففف.. ألا تتعب النساء؟ نسرين غاضبة لأنها تريد أن نتزوج. بسنت غاضبة لأنني أجبرتها على الزواج ممن تحب. ماذا تريدون إذن؟ ما يثير غضبي حقًا أن علاقتها بعلي تحسنت جدًا، لكنها غاضبة مني و لا تتحدث الي! أحك رأسي بيدي. لماذا تريد نسرين أن نتزوج؟ هي تعلم يقينًا أنني لا أرغب

في الزواج منها، تعلم يقينًا أن العشر سنوات الماضية لم تكن سوى واجهة لأردأ بها أي إشاعات تحاول النيل مني لأنني لم أرغب في النساء. الحقيقة أنني كنت أرغب النساء، ولكنني أذكى من أن أقضي حياتي في فك طلاسم أفكارهن المعقدة؛ لذا كان يجب من وجود امرأة بجواري. إن حياة الرجل ليست بالسهولة التي تتخيلها النساء. هكذا ارتبطت بنسرين! هي تعلم يقينًا أن أمي لن تقبلها، أبي لن يقبلها، أنا لن أقبلها.. فلمَ الصداع إذن؟ لن أفهم النساء أبدًا!

رن الهاتف فرفعته بسرعة علّه ينجدني. إنه أبي.. يريدني الآن.. الآن؟ إنها الثالثة صباحًا.. حسنًا، أنا أعرف ما يريد. حدثتني أمي في الصباح. أنا حقًا لا أعرف ماذا سأفعل إن كان جادًا فيما يفكر فيه!

ارتديت ملابسي وهرعت إليه. أبي.. اللغز الدائم.. قد يظن من لا يعرفه أنه قاسٍ، من يعرفه يعرف أنه قاسٍ متبلد المشاعر.. دموي! لكن يبقى أن ترى نظرة الاهتمام في عينيه، لحظات جنونه إذا مسنا السوء؛ لتعرف أن بداخل هذا الرجل الكثير.

أذكر ذلك اليوم الذي كسر فيه مازن ذراع بسنت إثر مزاح قاسي. عدت بها من المستشفى لأجده ثائرًا. راح يعنفها ويصرخ في وجهها، مخبرًا إياها أنها فاشلة لا تصلح لأي شيء، ثم أرسلها إلى غرفتها دون طعام. جن الليل وفكرت في التسلل إلى غرفتها للاطمئنان عليها، لأجده واقفًا بجوارها متحسسًا جبيرة يدها برفق. تراجعت إلى غرفتي، لأشعر به يقتحم غرفة مازن. هرعت إليه لأجده ساحبًا مازن إلى الحمام، دافعًا برأسه إلى المرحاض..

– انت مش راجل.. اللي يسمح إن أخته تتئذي قدامه ميبقاش راجل..اللي يأذي اخته و ما يحميهاش ما يبقاش راجل!

تراجعت إلى غرفتي خوفًا. أعرف أن نوبة غضبه ستنتهي دون أن يؤذيه، إلا أن الموقف كان عجيبًا. كنت أظن أنه يكرهها. توالت مواقفه أمامي حتى دفنت بسنت نفسها في صدره ليلة زفافها. لم يدفعها، بل احتضنها! ربما هي المرة الأولى التي أراه يحتضن أيًا منا! هو يحبها، هو يهتم لأمرها.. لماذا يصمم إذن على ضم علي

إلينا.. الأمر خطر. هو لا يريد أن يؤذيها، فلماذا يفكر بذلك الشكل؟ أنا لن أفهم أبي أبدًا!

دخلت إلى المنزل لأجده بانتظاري. مازن وهشام كذلك. كان يعلمنا أن علي سيكون معنا! الحقيقة أن أبي قد ترك لي قيادة كل شيء، إلا أن هذا لا يعني أنني أستطيع أن أراجعه في قراره. نظرة الغضب في عينيه تخبرني أن عليّ الصمت. الأمر يحتاج إلى الحكمة للخروج من ذلك المأزق. أفكر في بسنت.. تبًا! ستظن أنني خذلتها! علي أيها الوغد، من أية داهية أُلقيت علينا؟

خرجت كاسف البال مشتت، لأجد أمي في انتظاري. سألتني عما حدث فأخبرتها باختصار:

– كل اللي فات كان حمادة، واللي جاي حمادة تاني خالص!!

الفصل الثاني عشر

في يوم من الأيام، أخبرني عمي أنه لا يوجد رجل، إلا ويندم على أنه تزوج! لا يوجد رجل، إلا ويدعي الدخول إلى الحمام لحلاقة ذقنه، فقط ليختلي بنفسه ناظرًا إلى المرآة بغل هامسًا:

كنت عايش برنس! كان يوم اسود!!!

* * *

تتنفس ببطء. أعرف أنها نامت. أضمها أكثر إلى صدري. أعرف يقينًا أنه ليس ذنبها.. ولكنه أيضًا ليس ذنبي!

هي تحبني حقًا، وأنا كذلك أحبها. قد أخشى والدها وأخوتها، لكنني لا أخشاها. قد تكون قادرة على القتل، لكنها بين يدي تكون كالملاك. تتقافز كالطفلة عند أية مفاجأة. اللحظات التي أقضيها معها تجعلني أنسى من هو والدها وما يقدر على فعله!

أتأمل السقف فوقي. خرجت معهم. اليوم كان أول يوم عمل لي. الأمر ليس بهذا السوء. الحقيقة أن في ذهني دارت جميع الاحتمالات عن عملهم، إلى أن اكتشفت أنهم يتاجرون في السلاح! بدا الأمر مخيبًا للآمال! لا أدري حقًا، لكن بعد كل الساسبنس الذي عايشته معهم، تخيلت أنهم يتاجرون في شيء ما سيغير نظام الكون. لا أدري لماذا بدت تجارة السلاح محبطة!

الأمر مر بسلاسة غريبة جعلتني أتساءل عن وجود الشرطة! الشرطة موجودة حتمًا، لكن علي أن أعترف أن حماي وأولاده بارعون فيما يفعلون. وضعت جميع الاحتمالات في رأسي، ورحت أسأل مازن الذي كان بجواري.. هل لديهم فكرة عن دوريات حرس الحدود في هذا المكان؟ هل يتعاون أحد معهم؟ هل.....، نظر إلي بهدوء، ثم طلب مني أن أخرس، فخرست! حتمًا هم لن يعطوني أسرارهم! بل إن خروجي مع مازن لم يكن ضروريًا أصلًا. عرفت فيما بعد أن رجالهم هم من

يقومون بهذا العمل دائمً.. إلا أن حماي صمم في هذا اليوم أن أخرج لأرى! سأكون ساذجًا لو ظننت أنه يحاول توريطي معهم. الأمر أكثر بساطة من هذا. الرجل يريد أن يتخلص مني! طوال الوقت كنت أتوقع صوت سارينة الشرطة، وأن يحدث تبادل لإطلاق النار، ليفر الجميع لأنهم معتادون على هذا، لأبقى أنا فأُقتل، أو ما هو أسوأ.. يُقبض عليّ!! إلا أن الأمر مر بسهولة أدهشتني. أعادني مازن إلى منزلهم، لأجد حماي بانتظارنا. تحدث كثيرًا إلى مازن، بينما تجاهلني تمامًا كعادته. شعرت بالغضب. الرجل يهينني طوال الوقت، متوقعًا أن أخضع له. قد أحب الحياة، لكنني ومع الوقت صرت لا أبالي بموتي، ما دامت حياتي معناها أن أحيا في هذا الذل! نهضت خارجًا دون أن أستأذن، لأجده يصرخ: انت ازاي تخرج قبل ما أخلص كلامي؟

توقفت للحظة والتفت إليه..

انت مبتكلمنيش، انت بتكلم ابنك.. أنا طالع أستريح!

قلتها وتركته وصعدت إلى غرفتي. خلعت ملابسي لأستحم، لأجد بسنت قد لحقت بي. كانت مع والدتها. ألقت نفسها في صدري فدفعتها. كنت أشعر بالدماء تفور في عروقي ولا أفهم لذلك سببًا. ابتعدت بدهشة: هو في إيه ؟

أمسكت ذراعها بغل لأصرخ: أنا مبقيتش قادر أتحمل القرف ده! أنا مبقيتش قادر أتحمل تصرفات أبوكي! هو عايز إيه؟

راحت تحاول أن تهدئني حين ابتعدت ثائرًا، إلى أن انفجرت في البكاء. توقفت للحظة وأنا لا أعرف ما أفعل. لم أضعف ولم أشعر بالشفقة عليها. دخلت الحمام ولا أدري حقًا كم مكثت فيه. خرجت لأضع نفسي في السرير وأحاول النوم.

أنا آسفة..

متى أتت؟ لم تكن في الغرفة حين خرجت ونمت..

حقك عليا..

صوتها يتهدج، بينما أنا أشعر برغبة حقيقية في خنقها.. هي السبب في كل هذا..

أرجوك رد عليا..

شعرت بدموعها تنساب على وجهي، حيث كنت أوليها ظهري بينما هي تهمس في أذني..

أنا آسفة والله..

لم أجِب. ابتعدت عني قليلًا لأسمع صوتها وقد انفجرت في بكاء مزقني. لم أدر ماذا أفعل، بل لم أدر ماذا حدث لي.. لم أعتد أن أكون قاسيًا لهذا الحد أبدا.. حياتي تحت سقف هذا البيت تغيرني للأسوأ فعلًا. نهضت لأضمها إلى صدري، وأنا أفكر بأنه كان يومًا أسودًا فعلًا يوم رأيت وجهك الجميل، يوم أحببتك أيتها الأفعى القاتلة!

نامت في حضني، بينما في ظلام الليل أحدق في سقف الغرفة. علي أن أرحل من هنا. أشعر بدقات قلبها. لا أستطيع أن أتركها. سأرحل وسآخذها معي. أنا قادر على إقناعها بذلك!

الفصل الثالث عشر

سيظل الأب يرى زوج ابنته عدوًا. ستظل الأم ترى زوجة ابنها أفعى. هذه هي قوانين اللعبة. صراع سيدوم حتى تقوم الساعة!

* * *

حسين ينتوي أمرًا ما!!

أراقبه بتوتر. لو غضب، لو صرخ، لو فقد أعصابه للحظة؛ سأشعر بالراحة.

حسين يضمر شرًا لعلي!

هذا أمر مفروغ منه منذ اللحظة الأولى التي طل فيها علي علينا. يكرهه لحد الجنون. يكرهه لدرجة جعلتني أشعر أن الأمر يتخطى حاجز عدم الراحة، عدم الرغبة في تزويج بسنت. الأمر يصل إلى حد الغيرة!!

أنا لست حمقاء. نظراته عاتبة لبسنت، طوال الوقت عاتبة. نظراته لعلي كارهة، تشع اشمئزازًا. لو أن ابنته الأميرة التي قبّلت الضفدع، لما نظر إليه هذه النظرة!

يحاول قتله، فترفض. يحاول تدميره في عينيها، فتزداد تعلقًا. لابد أن الأمر مميت بالنسبة إليه.

السيطرة على الأمر كانت صعبة، ولكنها ليست مستحيلة.. متى أصبحت مستحيلة؟ بعدما خرج علي مع مازن في رحلة عمل. الأمور بعدها صارت مأساوية! كرة ثلج تكبر في كل حركة. علي أصبح رافضًا لمعاملة حسين المزرية، الأمر الذي وصل لصراخه في بسنت! صراخ وصلني وأنا في غرفتي، ويبدو أنه وصل لحسين، لأنه ومنذ حينها وهو صامت صمت القبور الذي أخشاه، قبر عندما سيفتح سيكون صداه يصم الآذان، ستكون رائحته قاتلة!

بسنت تحاول أن تتعامل كأن شيئًا لم يكن، لكنني رأيتها في اليوم التالي لصراخ علي، وجهها شاحب وعيناها منتفخة. كانت تحاول أن تساعدني في إعداد الإفطار حين دخل حسين، جذبها من ذراعها فجأة، ليجعلها تُسقط ما كانت تمسك به. ظل يتأمل وجهها للحظة، ثم خرج دون أدنى كلمة!

تنظر إلي بسنت بدهشة: إيه ده؟ هو في إيه؟

فلا أجيب. من لديه مصيبة، يظن أن أحدًا لا يدري بها! بسنت تتعامل على أساس أن شيئًا لم يكن، غير عالمة أننا سمعنا صراخ علي فيها. لم أجب. لن أوترها وأحرق أعصابها بلا فائدة. سأنتظر مجيء يحيى، هو وحده قادر على إيقاف المصيبة القادمة.

لم يأت يحيى حتى ميعاد الغداء. سحبته لأخبره ما كان، فتعكر وجهه ولم يجب. للمرة الأولى أفطن إلى خطورة الموقف. هذه المرة لن يقف يحيى في وجه المصيبة، هذه المرة سيتحد مع المصيبة!

جلسنا على مائدة الغداء صامتين. أحاول أن أكسر الثلج بأن أوجه كلامي لعلي الذي بدا شاردًا هو الآخر. بسنت تنظر لي بإعياء. أرجوك يا إلهي لا تجعل يحيى يقتل علي، لا تجعل حسين يقتل علي. أرجوك لا تحطم قلب بسنت.. أرجوك.

– عمو أنا قررت إني هاخد بسنت ونمشي من هنا.

نزلت عليّ كلمات علي كالصاعقة. نظرت لبسنت فوجدتها أكثر شحوبًا وإعياءً. كففت عن الدعاء، وقد يقنت أن الدماء قادمة لا محالة.

رفعت عيني لحسين، لأجده يمد شوكته لطبق المحشي بلا أدنى ردة فعل لما قاله علي. ردة فعله زادتني خوفًا.. عدم ردة فعله زادتني خوفًا. حسين قرر ما هو قادم، علي فقط أعطاه التوقيت!

صب يحيى كوب من الماء أمامه دون أدنى كلمة..

– انت فاهم انت بتقول إيه؟

خرجت من مازن. توجه علي إليه بتحفز: أيوه فاهم يا مازن.. أنا مش بطلب المستحيل، أنا بطلب أعيش حياة طبيعية مع مراتي!

– مراتك دي واحدة مننا.

قالها مازن بهدوء..

– بص يا علي، من غير الدخول في تفاصيل عمرها ما هتفيدك، أحب أقول لك إنه عيب أوي تتكلم في موضوع زي ده ع الأكل!

– فعلا ما يصحّش!

قالها هشام بعدما ازدرد ما في فمه..

وضعت الشوكة جانبًا، وقد رأيت المستقبل كعرافة إغريقية! هذا ما انتووه إذن، سيسفهون كلامه حتى يخرج عن شعوره ثم ينهوه، وقتها سيبدو الأمر كأنه هو من تسبب في موته!

– أنا تعبانة.. أنا تعبانة أوي يا ماما.

قالتها بسنت ممسكة برأسها. لم يتحرك أحد سوى علي الجالس بجوارها، في حين بقي الجميع يأكلون بهدوء. نظرت إليهم غير مصدقة، في حين أن حسين نظر إلي نظرة إلعبوا غيرها!

أسندتها أنا وعلي إلى خارج غرفة الطعام. عرق بارد يغمر وجهها. وضعتها في سريرها، بينما اختفى علي! ما هذه الدماء؟ ابنتي تنزف، ابنتي كانت حامل؟ ابنتي تفقد أول فرحتي! وتفقد زوجها في نفس الوقت! رحمتك بنا يا إلهي!

الفصل الرابع عشر

عدني بأنك ستحفظ ابنتي، أعدك بأنني سأراقبك حتى تنحث بهذا الوعد!

* * *

الصبر.. الصبر كان المفتاح لنجاحي. الصبر هو الشيء الوحيد الذي لم أعطه للمقربين مني. الصبر صفة تُحمد. الصبر.. هذا ما أحاول أن أفعله حتى لا أحطم أهم ما أملكه.. هذا البيت.

أتى من الشارع ليخرب حياتي، يدنس ابنتي، يدمر منزلي.. علي.. أنت في مشكلة لا تدرك أبعادها حقًا!

يتجاهل تجاهلي إليه! الوغد.. كيف يجرؤ على عدم تلقي الإهانة؟ بل إنه تمادى وصرخ فيها. سمعته ولم أسمع لها صوتًا! بسنت! بسنت أقوى أخوتها، التي لم يجرؤ أحدهم في يوم على أن يعنفها. بسنت القادرة على تحطيم جمجمته والتهام عنقه، لم أسمع لها صوتًا! بل إنها باتت باكية. يُبكي ابنتي وهو تحت سقفي!

مشكلة علي الحقيقة أنه لا يدري حقًا من أنا. أنا لست ذلك الرجل الثري الذي يخدمه الآخرون بأمواله. لقد أتيت من القاع أيها الأحمق. نحتتُ في الصخر نحتًا طريقًا ليصبح ممهدًا لأبنائي. لا أذكر عدد الجثث الملقاة على جانبي هذا الطريق، كل ما أعرفه أنك لن تكون جثة مميزة.. أبدًا.. ستكون جثة ممزقة مقلوعة الأظافر، تغطيها حروق السجائر، بعدها ستنتفخ وتنفجر وتصبح هشيمًا تذروه الرياح. كل الجثث كذلك. من هم أقوى منك باتوا كذلك. عادوني في نجاحي، في عملي، وأنت.. أنت عاديتني في ابنتي الوحيدة!

جلست معطيًا وجه البرود، بينما أنا أغلي. مضطر أنا لتحمله على مائدة الطعام. سأنهيه ولن يوقفني أحد، سأمزقه وأقطع أطرافه وأرميها للكلاب، وبينما هو حي يراها، سأترك له عينيه، لن أنتزعها حتى أنتهي.. عليه أن يرى ما سأفعله به. يحيى؟ هشام؟ مازن؟ ليوقفني حدهم! بسنت؟ آآآه! ليتها تعترض! أقسم على أن

أدفنها حية في قبو السلاح ولن تخرج منه أبدًا. سأسلسلها كالحيوانات إلى أن تموت وأدفنها فيه. لن تكون أول جثة بالأسفل.

– عمو أنا قررت إني هاخد بسنت ونمشي من هنا.

هههههههههههههه كدت أنفجر ضاحكًا. احلم يا عزيزي احلم! رحت أتناول الطعام بشهية حقيقية. هذا الكابوس كاد أن ينتهي.

راح مازن وهشام يتلاعبان به. لا بأس، ليستمتع الأولاد قبل العرض الكبير.

– أنا تعبانة.. أنا تعبانة أوي يا ماما.

– على بابا يا بسنت؟

رفعت عيني إليها بينما تسندها أمها إلى أعلى. أقسم بالله أن أمزقها هي الأخرى!

رحت ألتهم بقية طعامي بغل. صمت لف الأولاد، لم يقطعه سوى يحيى: في دم على كرسي بسنت!

رفعت عيني إليه بغل أكبر..

– انت هتستعبطني؟

هز رأسه أن لا، مشيرًا للكرسي. نهضت لأرى ما يتحدث عنه. المائدة التي تزينها الكراسي البيضاء، أحدهم مزين بالدم! شعرت للحظة بضيق تنفس. أسمع دقات قلبي في أذني عالية. علي أتى هرعًا: بسنت بتنزف!

هرع الثلاثة إليها، بينما بيقت أنا أجاهد لالتقاط أنفاسي. لا يجب أن يراني أحد وأنا في هذا الحال! تحاملت على نفسي لأدخل إلى مكتبي. أفتح التكييف، أفتح أزرار القميص..

– بابا احنا هننقلها على المستشفى.

أشير بلا مبالاة، بينما كان كل ما أتمناه في هذه اللحظة أن أملك صوتًا يسأل ما بها؟

خرجوا جميعًا وتركوني وحيدًا أصارع من أجل الهواء. لا بأس.. لا بأس يا حسين. هذا أمر طبيعي.. أنت لست طفلًا.. أمراض القلب واردة في هذا السن مع حياة القلق التي تعيشها.. لا بأس.

جن الليل. عاد يحيى وهشام ومازن إلى المنزل. كنت قد أصبحت أفضل. حاولت أن أسأل عنها، لكنني خفت أن يخبروني أنها ليست بخير. وجوم يحويهم قطعه يحيى: بابا.. علي لازم يموت!

ظللت أنظر إليه عاجزًا عن السؤال عنها. أنقذني مازن: أنا شايف إن بسنت في حالة متسمحش بده دلوقتي.. نسنتى شوية، علي الأقل لغاية ما تولد.

– تولد؟!

خرجت على الرغم مني عالية! هي؟؟ تختلط الكلمات بالمشاعر بداخلي.. ابنتي حامل.. ابنتي نزفت.. ابنتي ما زالت حامل.. أنا أنتظر حفيدًا!

لحقني هشام: الدكتور بيقول إجهاض منذر.. محتاجة راحة تامة عشان الحمل يثبت.

يا الله، كم أنت لطيف.. أنا.. سأصبح جَدًا!

سرحت للحظة في حفيدي. آآآآه سيبدو مثلي تمامًا. بسنت تشبهني أصلًا! قد يأخذ ملامحًا من أبيه. لكن هذه أشياء تعالج بعمليات التجميل. لكم سنلهو.. الحديقة مثالية.. سيكون من السهل تركيب مدينة ملاهٍ كاملة فيها من أجله!

أفقت من خواطري على صوت يحيى يهدر غاضبًا: انت مبتفهمش! علي ده لازم يموت، واللي في بطنها لازم ينزل! انت متعرفش الحيوان ده بيعاملها ازاي!

راح مازن يعانده، بينما هشام يشاهد بلا تدخل. للمرة الأولى أرى عاقبة ألا تجعل لأبنائك مخرجًا سواهم! غضب يحيى، ليس من علي، إنه ببساطة غاضب من بسنت. علي الرغم من فارق السن بينهما فلم يكن والد آخر لها فحسب، لكنهما أيضًا كانا

كالتوءمين السيامي لا ينفصلان. فجأة يأتي علي، فجأة يريد أن ينفصل. يحيى على استعداد لحرق الأخضر واليابس في سبيل أن تعود وحيدة مثلهم!

– انت خيبت أملي فيك يا يحيى!

قلتها والحزن يملؤني. أُخذ مما قلت..

– يا بابا لازم تفهمني.. بسنت هتزعل شوية، وبعدين....

– وبعدين عمرها ما هتسامح!

قالها مازن وهو يتحاشى النظر إلي. الأحمق يظن أنني كنت سببًا في تدمير علاقته الفاشلة أصلًا، غير عالم أن أمه من قامت بالدور. لم يسامحني قط، وأنا لم أهتم لتوضيح الأمر. لا أهتم حقًا كيف يراني أبنائي، سيظلون يطيعونني على الرغم منهم. لكن كان الأمر ليقتل أمهم لو تعامل معها مازن بنفس الشكل.

– علي هيموت، بس مش دلوقتي.

قلتها بهدوء..

– هيموت لما بسنت تشوفه زي ما احنا شايفينه.

نهضت تاركًا مكتبي منهيًا الحديث، بينما عقلي منهك في كيفية الخلاص منه.

الصبر.. الصبر هو ما أحتاجه في المرحلة القادمة!

الفصل الخامس عشر

عارف يعني إيه ست؟؟؟

* * *

جررتها من يدها لألقي بها خارج الشقة باكية، ثم أغلقت الباب في وجهها!

لا أطيق هذا الأسلوب المتباكي. أنا أعرف النساء جيدًا، أعرفها جيدًا هي جيدا.. لم أحبها قط، وهي ارتبطت بي من أجل المال. فلماذا تظن أنني سأقع فريسة هواها إذن؟؟

رغباتي أوامر، أنظر فتصمت، أضحك فتضحك؛ غير مسموح بشيء آخر.. هذه هي قواعد لعبة المرافقة من أجل المال. كلهن كذلك. تعودت الأمر حتى صرت أكره سماع أصواتهن. تواجدهن في حياتي تكميلي، مثل علبة سجائري، أحبها ولا أستغني عنها.. هل سمعت عن سيجارة تطلب منك أن تتزوجها؟

أرحت جسدي على السرير وفتحت التلفاز أقلب القنوات، وأنا سارح في ملكوت آخر. يحيى يريد أن يتخلص من علي! يحيى كان ملاذنا الوحيد أمام أبي، ذلك المخلوق متحجر القلب والمشاعر. رأيته مؤخرًا وللمرة الأولى متحيزًا لصوت قلبه! قلبه الذي همس له بأن أترك علي حتى تنجب بسنت! لماذا لم يهمس قلبه من قبل؟ لماذا لم يخبره أنه دمر حياتي وكسر قلبي حين أبعد نادين عني؟ آذاها بشكل لم أفهمه. باتت سجينة مستشفى الأمراض العصبية عدة أشهر. كنت كالمجنون أحوم محاولًا فهم ما كان. هل أرسل من يضربها؟ هل أرسل من يغتصبها؟ طبيبها أكد أنها لم تتعرض لأي عنف جسدي! ماذا فعل بها إذن؟ عندما أفاقت من صدمتها أنهت حياتي ببضعة كلمات..

– مش عايزة أشوفك تاني يا مازن!

سألت آلاف المرات عن السبب.. ماذا حدث؟ ماذا فعلت؟ بلا إجابة، بل إنها طلبت عدم لقائي!

عارف يعني إيه واحدة ست؟

يعني أن أموت في كل دقيقة أتخيل أن أحدهم آذاها! كانت لتصبح زوجتي. هي المرأة التي أشعرتني أنني رجل، وعندما تأذت شعرت بعجز سيلازمني حتى قبري!

أمي حاولت تهدئة الأمور بيني وبينه بلا جدوى. كرهته.. وكنت أول من استقل بحياته من ذلك البيت. يومها بكت أمي متوسلة أن أبقى. هي الوحيدة التي كنت لأضعف أمامها. كدت حقًا أعود إلى المنزل..

عارف يعيني إيه واحدة ست؟

يعني أن تمسك بسنت يدي بقوة هامسة في أذني: إمشي!

حزمها وقوتها هما ما أعطياني الدفعة الأخيرة للفرار، وجعلاني أقوى في مواجهة دموع أمي. لم أنس لها يومًا ما فعلته من أجلي. لم أنس لها يومًا أنها هي الأخرى قاطعت أبي من أجلي وتحاشت الكلام معه! كنت أسمع ما ينقله هشام عن غضب أبي عليها، أزداد شفقة وإعجابًا به.. لم تخذلني يومًا. هي الوحيدة التي أعلنت عصيانها في اللحظة التي وقف فيها يحيى مؤيدًا إبعاد من يراه أبي غير صالح. يحيى الذي غيّر موقفه تمامًا عندما وقعت بسنت في نفس الفخ. لم أحقد عليها يومًا وساعدتها في الحصول على سعادتها. لكن لم يمر يوم دون أن أتخيل حياتي لو تزوجت نادين! قد يرى البعيد عنا أن بسنت مهضوم حقها في ذلك البيت، لكن الحقيقة عكس ذلك..

عارف يعني إيه واحدة ست؟

يعني أن يغيّر يحيى قناعاته، أن يلين أبي من أجلها، أن يندفع هشام معنا بحماسة لإجبار علي على الزواج منها! هشام العابث الذي لا تنال منه سوى المزاح، وينال نصيب الأسد من كل شئ!

بسنت تحب علي، وهو كذلك يحبها. يحبها بجنون. لو كنت مكانه لما أجبرت على العيش في هذا الجحيم. هو ليس عاجزًا. عرفت هذا منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها. كنت أتوقع أن الأمور ستسوء، لكنني لم أتخيل أن تسوء مبكرًا. لذا عندما أعلن علي عن رغبته من الانفصال بزوجته، رحت أسفّه من رأيه وأعابثه. لا تقتل نفسك أيها الأحمق.. لا تعطه الضوء الأخضر لدفنك!

بسنت عادت إلى البيت منهكة، متعبة.. انعزلت في غرفتها بأوامر الطبيب. كف علي عن الكلام، وكف أبي عن التعامل معه. عرفت أن الأمر لن يدوم. عرفت هذا يوم طلب مني أبي أن أستدعيه ليخرج معنا غد!

غدًا يوم آخر إذن.. أجهز ملابسي وأتعطر وأخرج. أقابل يحيى في جراج ذلك الفندق المطل على النيل. نصعد لنرتب العشاء. عشاء عمل طبيعي جدًا، في المطعم الفرنسي الذي لا يزوره إلا العشاق. طلته على النيل وجلسته ذات الإضاءة الخافتة، كانت أكثر من ممتازة. ظهر علي وهشام ومعهم أبي، متأنق يمشي الهوينا، شامخ الرأس، ثقته مزعجة، ثقته قاتلة، ثقته تجعلني أتمنى أن أحطمه.. أنت حطمت حياتي. لا يوجد شخص على وجه الكرة الأرضية لم يتمنّ في يوم من الأيام لو يختفي أبيه.. الجميع يتمنى هذا في فترة المراهقة. أنا سأظل على أمنيتي حتى يواريني التراب، سأساعد علي على الفرار هو وبسنت، سأحرق قلبك كما أحرقت قلبي. دعه يدّعي القوة أنه يستطيع أن يأتي بهم من جوف حوت يونس إن اختبأوا فيه.. هو عاجز عن ذلك، هو مدعٍ، متسلط، مجنون تحكم في الآخرين.. سأذبحك بسكين البعد كما ذبحتني يا حسين.

جلسنا على طاولة مجاورة للطاولة الرئيسية التي جمعت أبي ويحيى وثلاثة آخرين. يتحدثون في أمور لا تعنيني. يهمس هشام في أذني أنه غير مستريح. إنها المرة الأولى التي يصمم فيها أبي الخروج بدون حراسة. أهمس بأننا معه، فيهز رأسه في غير اقتناع. الطرف الثاني هو من طلب ذلك.. سيأتي بمفرده، ولتأت بمفردك. هشام يؤكد أن الرجل بدا عليه الانزعاج حين رآنا!

فركت يدي بهدوء.. آآه أيها الشيطان! أنا أعرف حسين جيدا، ما يقوله هشام ليس له سوى معنى واحد.. أبي قرر الخلاص من علي، وجعلنا شهود على أنه حادث!

عارف يعني إيه واحدة ست؟

يعني أنها مخلوق أذكى من أن يُخدع. لو أنه يظن أن هذه طريقة لإقناع بسنت أنه ليس له يد في موت علي، فهو أحمق. ستعرف بسنت. ستغضب وسيكون غضبها كاسحًا لا يبقي ولا يذر! هي أسوأنا على الإطلاق. اقتُل علي بهذه الكذبة الغبية، وستكون حكمت على نفسك بالإعدام! هي حقًا قادرة على هذا.

انتهى العشاء بشكل متوتر. لم أسمع ما قيل، لكن الطرف الأخر بدا غاضبًا. أنهى أبي طعامه ببرود مستفز، ثم نهض فنهضنا نازلين. أشار لعلي للبقاء قريبًا منه. رحت أراقبه من بعد وأنا واثق مما هو آت.. ستأتي تلك السيارة المسرعة ليدفعه أمامها، إلا أنه ولدهشتي لم يحدث شيء. اقترب علي ليفتح سيارة أبي، لأفاجأ برصاص ينهمر على سيارة أبي! أبي الذي تحرك من مكانه بسرعة لا تتناسب مع سنه؛ ليدفع علي أرضًا! دورة أخرى من السيارة التي يطلق ركابها رصاص كثيف بدون صوت. هشام ويحيى كانا يردان من موقعهما بقوة، هرعت أنا باتجاه سيارة أبي لأرى ما حدث لعلي، لأجد علي يحاول مساعدة أبي الذي راح ينزف بقوة!

شللت للحظة. ظللت أتأمله وأنا عاجز عن الحركة. دبت فيه القوة فجأة ليجذبني لأسفل..

– انت غبي..

قالها بأنفاس متلاحقة..

– انت عايز تموت؟

انتهت الغارة، بينما أنا بعدي أضغط على مكان النزيف في محاولة لإيقافه. هرع إلي يحيى وهشام، بينما أنا حقا عاجز التصرف.

– لازم نتحرك!

قالها يحيى فحملنا أبي إلى السيارة. خرجنا بهدوء، بينما يدي على مكان النزيف.

– متخافش.

قالها ممسكًا بيدي..

– هبقى كويس.

قالها وأغمض عينيه ولم يفتحهما، رغم صوتي الذي بح في النداء عليه.

الفصل السادس عشر

ابني..

* * *

أراحت رأسها على صدري برفق. رائحة عطرها تفعم أنفي..

– هشام.. أنا عندي مفاجأة ليك.. أنا حامل!

أمسكت كف يدها مقربًا إياه من فمي، لأضع قبلة عليه هامسًا بحب: يتربى في عز أبوه يا حبيبتي.. ألف مبروك.

دهشَت وهي تسحب يدها..

– هشام.. انت أبوه!

دفعتها عن صدري بضيق، ساحبًا سيجارة من جواري..

– لا كده مش حلو.. كده فعلًا هتضايق! انتي متخيلة إني عبيط يا شيري؟ متخيلة إني مش عارف علاقاتك التانية؟ متخيلة إنك هتروحي تحملي من واحد تاني واشيلها أنا؟

– والله يا هشام.....

أمسكت شعرها بيدي جاذبًا إياه لأعلى بغلّ: الكذب لا ما بحبوش انتي فاهمة؟؟

دفعتها مبعدًا إياها عني بينما هي ترتجف..

– شوفتي؟ أديكي عكّرتيلي دمي! اتفضلي بقى ، مشوفش وشك تاني!

لملمت أشياءها خارجة بهلع، بينما رحت أتابع فيلم أجنبي بلا شغف. قال حامل قال! لا تعرف إلا نصف الحقيقة. تلك الحمقاء! لا تعرف أنني وإن كنت لا أعرف يقينًا من تلاقي، إلا أنني أعرف أن هناك حتمًا شخص آخر! الأمر لا يحتاج ذكاءً، يكفي أن أشمها لأكتشف رائحة رجل غيري على جسدها! رائحة لا تُزال بالاستحمام والمعطرات!

حمقاء! لو أنها طلبت أن أساعدها في الخلاص منه لفعلت، إلا أنها تحاول خداعي بالطريقة الوحيدة التي لن أُخدع بها أبدًا! هي لن تحمل مني أطفالًا قط.. هي أو غيرها! أنا ببساطة غير قادر علي الإنجاب!

كانت دينا هي السبب في تلك الصدمة. رأيتها في حفل زفاف دُعيت إليه. لفتت نظري باختلافها.. حجاب محتشم وفستان ينم عن ذوق راقٍ يداري جسدًا رسمت تفاصيله لتتقاتل الرجال عليه! أحببتها وتمنيت الزواج منها. هي الأخرى أحبتني، وقبل أن أصارح أبي بنيتي في الزواج منها، صارحتني بأنها تحمل عيبًا وراثيًا قد يجعلها تنجب أطفالًا غير طبيعيين! قالتها باكية. كانت صدمتي عاتية. أخذتها إلى معمل تحاليل لنتأكد مما قالت. قمت بإجراء تحاليل أنا الآخر، لأنال صدمتي كاملة. ما قالته كان حقيقي، لكنها حتمًا قادرة على الإنجاب! أما أنا، فمصاب بعيب خلقي يجعلني غير قادر على الإنجاب أصلًا!

كان قراري حاسمًا: دينا.. أنا اتأكدت من اللي قلتيه.. الحقيقة أنا مش هقدر أعيش كده! أنا نفسي في أطفال أسوياء!

قلتها كاذبًا. لن أسمح أن يعرف أحدًا بما أنا عليه. سافرت أقطار الأرض في محاولة لإيجاد حل، ولكن بلا جدوى. لن أنجب أبدًا.

أعرف يقينًا أنها كرهتني. أعرف هذا ولا أهتم. الحقيقة أنني لو كنت طبيعيًا لما تزوجتها أيضًا. أنا أردت ابنًا، ابنًا طبيعيًا أتباهى به أمام الناس! لأفاجأ بأنني غير قادر على ذلك!

أورثني سري لا مبالاة بما يجري حولي. أتأمل يحيى العازف عن النساء فأشعر بالدهشة. هو غير قادر على التعامل مع النساء. يزجره أبي مؤكدًا أن تصرفاته أورثته سمعة غير مرغوبة، فيصادق مضطرًا! أنا أعرف يحيى أخي. أراه كيف ينظر إلى النساء نظرة المشتهي الغير راغب. يتحدث عن الصداع، عن الإلحاح، عن البكاء الغير مبرر؛ فأنظر إليه بدهشة.. هن نساء، ماذا تتوقع؟ يخطو للخمسين بخطى ثابتة، فأشعر بالدهشة. متي تنجب؟ يشرد قليلًا وعلى وجهه ابتسامة من يرى ابنه بين يديه، ثم يتعكر وجهه.

– لا يا عم.. معنى كده إني هضطر أعيش مع واحدة بقيت حياتي!

مازن الأحمق متقوقع في عالم فتاته القديمة. لديك القدرة على ملء حياتك بهجة بأولادك، إلا أنك بعدك عاكف في محرابها! لا يعرف قيمة النعمة إلا المحروم منها! أنظر إليهما وأنا أشعر بالضيق. لماذا لا ينجب أحدكما ليعطيني طفلًا؟ كنا دائمًا هكذا، ما امتلكه أحدنا ملكًا للآخر.. ليتزوج أحدكما وينجب بالله عليكما!

كلما شعرت بعجزي، كلما زادت شهوتي. أصبحت ألاقي النساء ليلًا نهارًا. في كل مرة أنتهي، أشعر بعجز أكبر. أقف عاريًا أتأمل جسدي الضخم، أتأمل حجرة نومي الفخمة من خلفي.. لدي كل شيء في الدنيا، لكنني عاجز على إنتاج حيوان منوي واحد سليم! لا أستطيع أن أشعر به يكبر في رحم امرأة من نطفة إلى علقة إلى عظام! رأيت دينا صدفة في ذلك المول، كانت تدفع عربة عليها طفل ذو عينين مسحوبتين وابتسامة ملائكية! نظرت إلي بتوتر وإحراج وابتعدت، ابتسمت على الرغم مني، وأنا أشعر بالشرخ بداخلي يزداد صدعًا.. على الأقل هي قادرة على الإنجاب.

جاءت فرصتي في صورة زوج لبسنت. لم يرق لي لحظة، إلا أنها هامت به عشقًا! لم أعرف لذلك سببًا، لابد أنها مصابة بنوع نادر من التخلف العقلي لتقع في غرام هذا العلي. لم أهتم، لكن الأمر كان كفرصة أتت لي على طبق من ذهب. ستنجب بسنت طفلًا ليكون ابنًا لي. صحيح أنه سيكون من صلب علي، لكنه ابني أنا أيضًا، تجري في عروقه دماء أختي التي هي دمائي.

ساعدتها ليوافق أبي، ساعدتها لتتزوج علي وقتما هرب. الأحمق أراد أن ينفصل عنها، غير عالم أن وجوده لا قيمة له إلا لتنجب بسنت. لذا وعندما عرفت أنها حامل، كان علي فعل المستحيل لتنجب، عليها أن تخرج طفلًا سليمًا!

يحيى يرغب في الخلاص منه، وأنا كذلك، لكن الوقت ليس مناسبًا. راح مازن يعانده بغباء، بينما التزمت الصمت! من غير الممكن أن تعارض يحيى أو أبي وهما في حالة غضب. أنتظر حتى يهدؤوا وأفعل ما شئت.

خرجنا بعدها لعشاء عمل في ذلك المطعم. جلست على طاولة مجاورة لطاولة أبي، متأملًا فتاة تقدم لنا الطعام.. ملامح مصرية ببشرة خمرية وعيون داكنة، ذلك الزي يأخذ كثيرًا من جمال جسدها! التقت عيني بعيني يحيى لينظر لي نظرة "مش وقته!"

أفقت على نظرته فجأة.. لماذا خرجنا بمفردنا اليوم؟ توترت وأنا أهمس لمازن ما يدور في رأسي. راح يبرر وهو ينظر لأبي بغل كعادته. أنا لست مستريحًا لما يجري.

خرجنا إلى الجراج لنرحل. انهمر الرصاص مكتوم الصوت على سيارة أبي. اللعنة! رحت أحاول الرد أنا ويحيى، بينما هرع مازن إلى سيارة أبي. فرت السيارة، لنجد أبي مصابًا.

عدنا به إلى المنزل، بينما لحقنا الطبيب. من غير الممكن الذهاب به إلى المستشفى، عليك أن تبرر رصاصة في صدرك، دعك من أن إصابتك ستأخذ الكثير من سمعتك أمام خصومك!

كنت أقف بتوتر.. حمل بسنت استقر، لكنني لا أعرف حقًا ماذا سيحدث، ربما فقدت جنينها من الأحداث المتسارعة. هرعت لأطمئن عليها، لأجدها رافعة مسدسًا في وجه علي وهي تهم بإطلاق النار!

– لا!! ليس الآن يا بسنت.. قد نحتاجه!

الفصل السابع عشر

عارف يعني إيه ست؟؟؟

* * *

أنا خائف!!!

شعور فقدته منذ زمن طويل. بعد أن خسرتها، لم أعد أشعر بالخوف!

أبي.. الجبل الضخم، المارد المرعب، القاسي؛ ملقى بين يدي يلفظ أنفاسه الأخيرة! ماذا يحدث في هذه الدنيا؟ سيموت؟ هل هذا ممكن؟ تخيلت أن يوارينا جميعًا التراب، وهو بعد حي يرزق!

أحمله حملًا أنا وهشام إلى أعلى. كانت أمي متماسكة يغلب على وجهها الجمود. وقفت بسنت تراقبنا محاولة أن تبدو متماسكة هي الأخرى بلا جدوى. سنفقد أبًا وطفلًا اليوم!

دكتور جميل أتى مسرعًا. يحيى هاتفه في الطريق، كما هاتف أمي وأخبرها باقتضاب أن أبي أصيب. الأمر صعب حقًا. منذ سنوات طويلة لم يعد أحد منا يصاب بسوء، كان أبي يحمينا. اليوم أشعر أن ظهري عارٍ بلا غطاء.

فقد وعيه من النزيف. راح دكتور جميل ينزع ملابسه ويمسح الدماء التي تغطيه؛ ليرى مكان الإصابة. ارتجفت.. أعرف أنه من الأفضل أن يذهب إلى المستشفى، لكننا لو فعلنا سيقتلنا حين يفيق! لن يسمح بأن يقال إنه أصيب بطلق ودخل المستشفى!!

عارف يعني إيه ست؟

يعني أن يحاول الدكتور التقاط الرصاصة. يتألم أبي وهو غير واعٍ، فأشهق أنا بينما تأمرني أمي بحزم أن أخرج من الغرفة! هي متماسكة وأنا أرتجف! رباه! لن أحتمل أن يصيبه مكروه.

هو أبي، سندي وحمايتي، ولو وصل عمري للألف عام، سأشعر بأن وجوده يحميني. لو فقدته سأشعر بالضياع، باليتم، بالذنب لأنني فكرت في إيذائه!

جلست منزويًا وأنا أتذكر كلام أمي، عندما اكتشفت أنها حامل بي قررت أن تتخلص من جنين عمره ثلاثة أسابيع.. هو عارض، دافع عن حياتي. منذ أن كنت دمًا لم يتشكل إنسانًا ولم ينفَخ فيه روحًا! نادين هي امرأة أحببتها، لكن في هذه اللحظة أعرف يقينًا أن لي أمًا واحدة وأبًا واحد، وكلاهما لا بديل له!

ديميتري كارامازوف.. أشعر بما مر به الآن! طوال تلك السنوات، كانت تدهشني تلك الرواية وذلك الشخص. كره أباه بجنون وإن كان لأسباب أخرى غير أسبابي، وعندما قتل أبوه أعدم نفسه لشعوره بالذنب! أنا لم أطلق الرصاصة ولم أفكر لحظة أن أفعلها، لكنني أشعر أنني كنت سببًا في إصابته، سببًا في موته!

هشام يصرخ في بسنت. أهرع إلى الطابق الأعلى لأرى ما يجري. أدهش ولا أصدم. كنت أتوقع شيئًا كهذا!

عارف يعني إيه ست؟

يعني كتلة جنون خلقت لتسير على قدمين! بسنت تمسك بمسدس مصوبة إياه تجاه علي، الذي ينظر إليها بثبات غريب، بينما هشام يصرخ فيها ألا تفعل.. اقتربت منها ببطء..

– بسنت.. هاتي المسدس!

قلتها وأنا أسحبه من يدها المرتعشة، لتتركنا وتهرع إلى غرفتها باكية! كان علي واقف كما هو بنفس ثباته.. أفرغت خزانة المسدس وألقيت به بإهمال.. اقتربت منه واضعًا يدي على كتفه:

– علي..

رفع عينيه إلي بهدوء: طمّني على باباك عشان همشي..

أمسكت ذراعه لأجلسه على الكنبة وجلست بجواره، في حين هرع هشام خلف بسنت..

– عارف يعني إيه ست يا علي؟ يعني كتلة مشاعر متلخبطة.. طب عارف يعني إيه حمل في أول تلات شهور؟ يعني هرمونات متجننة، يعني قيء، يعني تعب بزيادة وعصبية بزيادة.. بسنت مش في وعيها دلوقتي.. أنا مش عارف إيه اللي حصل، بس دي مش تصرفاتها الطبيعية!

– أنا حكيتلها عن اللي حصل، قلت لها إن باباك خد طلقة عني وفداني بروحه..

قالها شاردًا..

– غبي! محدش كان هيقول لها!

نظر إلي بضيق ثم خفض رأسه مرة أخرى..

– طب عارف.. انت لو روحتلها دلوقتي وأخدتها في حضنك هتعيط زي العيال! اسألني أنا.. دي أختي!

ابتسم في سخرية ولم يعلّق، بل إنه لم يذهب خلفها كما توقعت. امتلأ للنهاية، وهذا ما كنت أخشاه. لم أجد حلًا سوى أن ألزم الصمت أنا الآخر، داعيًا أن تمر الليلة بسلام.

انتهى الدكتور جميل من عمله وغادر. أبي ما زال في مرحلة الخطر؛ لذا ستلزم أمي غرفتهما للعناية به. لم أدر كم مضى من الوقت، لكنني لمحت بسنت نازلة إلينا، حيث جلسنا في غرفة المعيشة. كان هشام يلعب بلاي ستيشن بلا وعي، بينما علي

يحدق في الفراغ. ظلت تنظر إليه طويلًا دون جدوى. لم يحرك عينيه إليها! شعرت بالضيق مما أرى ولم أعلق.

عارف يعني إيه واحدة ست؟

يعني أن يقتلها التجاهل وتتجاهلك! لذا جلست ممسكة بكتاب تتصفحه بلا متابعة حقيقية. ظل على متمسكا بتجاهله لها، فشعرت بالرغبة في تكسير رأسه. نهضت متأهبًا للخروج لترفع عينيها إلي: انت رايح فين؟

- مروح يا بسنت.

- احنا كلنا هنبات هنا.. مينفعش حد فيكم يبات لوحده ولا ينفع تسيبونا لوحدنا!

- هيه!

ضحكة تهكمية عالية أطلقها علي، فتجاهلته بسنت مرة أخرى..

- يحيى بايت فوق في أوضة بابا، وماما معاه.. كل واحد فيكم يبات في أوضته لغاية ما بابا يفوق.

قالتها ولم تعط فرصة لأحد بالاعتراض، بأن انسحبت مرة أخرى إلى غرفتها.

عارف يعني إيه ست؟

يعني عقل يوزن بلد ينهار! لم أفكر لحظة في موضوع الخطورة على حياتي. كيف فكرت في الأمر وهي بها ما بها؟ الله أعلم! كيف استطاعت أن تجبرنا أنا وهشام أن نرضخ لأمرها؟ الله أعلم!

- أنا طالع أنام.

هز هشام رأسه أن نعم، بينما علي كما هو! صعدت إلى غرفتي، ألقيت جسدًا منهكًا على سريري القديم. علي سيهرب، وأنا سأقتله لو فعلها!!

الفصل الثامن عشر

سيرحل.....

* * *

نائمة على ظهري كما أمر الطيب، أتأمل السقف فوقي في ظلام الغرفة. لا أدري لماذا بدت الغرفة مضيئة، وبدا لي أن العتمة خارجة مني لتظلم الغرفة. أرى خياله معطيًا إياي ظهره. أعرف أنه لم ينم هو الآخر. لماذا فعلت بي ذلك يا علي؟ أعرف أنك تحملت الكثير من أجلي، أعرف أن أبي مستحيل التعامل معه، لكنه يظل أبي، يظل الرجل الذي استقرت رصاصة في جسده كي لا تنالها أنت. لماذا لم تراع هذا؟ لماذا لم تفكر في؟

سترحل.. أعرف هذا قبل أن تعرفه أنت، من قبل زواجنا وأنا أرى هذه النهاية. ستتركني بقلب محطم، وكبرياء ممزق، وجنين غير مستقر في أحشائي، ستتركني أحارب وحدي، أحارب كي لا يؤذيك يحيى، أحارب كي أحتفظ بجنيني، أحارب لأن هذا ما أفعله منذ أن أتيت لهذه الدنيا. ألا تعلم أنني تعبت؟ ألا تعلم أنني أنهكت؟ ألا تعلم أنني إخترتك لأنني وجدتك الوحيد القادر على حبي؟ الوحيد الذي أختفي خلفه وأحتمي به؟ لماذا فعلت ذلك؟

تنساب دموعي لأشعر بها تتساقط على وسادتي. في السقف أمامي أرى يومي كأنه فيلمًا ثلاثي الأبعاد، أخبرتني أمي بجمود أن أبي مصاب، وأنهم في طريقهم إلينا الآن، وتركتني لتحدث الطبيب. جلست مذهولة.. أبي؟ توقعت علي! كنت أظن أن سبب خروجه معهم طلقة طائشة ترديه. أعرف يقينًا أنها لن تكون طائشة، ستكون محكمة من يد أبي. لن يتركني أرى جثته، أعرف أنه سيتخلص منها في أقرب مقلب قمامة، أعرف أنه يكرهه ويتمنى الخلاص منه. لذا في كل لحظة يمضيها معنا تحت سقف هذا البيت، هي خطر داهم عليه. كنت أعد الثواني حتى يعود. أن يصاب أبي، هو أمر غريب غير مفهوم.

هرعوا إلى الداخل حاملين أبي. للمرة الأولى في حياتي أشعر بذلك الضعف. ذلك الجبل الذي لطالما عاندته وناطحته، ودائمًا كان أمانيّ وحمايتي وظلي، الآن أراه ضعيفًا تهاوى عن فقد بضعة لترات من دمه. أتراجع للخلف مفسحة لهم الطريق، بينما اندفعوا إلى غرفته يلحقهم الطبيب. أتأمل الأرض التي اكتست بدمائه. أهرع إلى غرفتي كي لا أنهار أمامهم.. لا أريد أن أكون عبئًا إضافيًا.

قبل أن أصل لغرفتي، وجدته جالسًا في غرفة المعيشة العلوية، كان علي جالسًا يدخن بهدوء. سألته ماذا حدث، وأنا أعرف يقينًا أن أحدهم استهدف أبي لكثرة أعدائه. نهض علي وأمسك ذراعي برفق: سيبك من اللي حصل.. إحنا لازم نهرب حالًا!

نظرت إليه مذهولة: نهرب؟ وبابا؟

– متخافيش على حسين، هيبقى كويس.

قالها بلهفة وهو يجذبني إلى غرفتنا..

– بس خلاص مفيش وقت، لازم نمشي.

– أنا مش هروح في حتة، أنا لازم أتطمن عليه.

قلتها وأنا أغالب دموعي..

– أنا أبويا ميستاهلش مني كده، هو أصلًا ميستاهلش اللي حصل ده!

– معقولة لحقوا يغسلوا دماغك؟ مين قالك؟ يحيى؟

قالها بتحفز..

– قال لي إيه؟

– بقى اسمعي، أنا مش مسؤول عن اللي حصل.. أبوكي مجرم واللي حصل له ده طبيعي.. أنا مليش أعداء عشان حد يحاول يقتلني.. هو ما أخدش الطلقة عني، الطلقة دي كان مصيرها كده كده تيجي في صدره.

شهقت وأنا أضع يدي على فمي كي لا أصرخ. انتفض قلبي بقوة آلمتني. أبي أخذ طلقة عنك، وأنت تحاول أن تقنعني بالهرب! أبعدته عني..

– انت حيوان، معندش أصل.. متستاهلش أي حاجة عملتها عشانك!

– عملتي عشاني؟ عملتي إيه؟ انتي بعتّي اخواتك يهددوني عشان أتجوزك!

صفعة!! صفعة شعرت إثرها بدوار رهيب. كنت أعرف أن شيئًا كهذا حدث، لكنني لم أتخيل في لحظة أن يصرح به. أوليته ظهري بينما صمت فجأة. كنت أبحث كالمجنونة عنه. تكلم بصوت مهزوز:

– يا بسنت.. أنا عايزك، بس بعيد عن هنا، بعيد عن القرف ده، بعيد عن شغل عيلتك.. انتي مراتي وشايلة اسمي، انتي....

راح يتكلم ويتكلم، بينما شعرت أن الدماء تغلي فعليًا في عروقي. أخيرًا وجدته. اندفعت أمسك به، فتحت صمام الأمان وصوبته إليه، لم يتراجع، لم يخف، بل لم تبد على وجهه أي ردة فعل. ظل ينظر إلي بثبات، بينما حاولت أنا أن أتماسك وألا ترتجف يدي. شعرت بهشام فجأة بجواري. متى أتى؟ لابد أنه يتكلم منذ فترة، لابد أنني واقفة كما أنا، دون أن أطلق النار، منذ فترة. شعرت بمازن يقترب:

– هاتي المسدس!

سحبه من يدي بينما أنا معدومة الإرادة، لم أجرؤ على الرفض أو التعليق. انسحبت هرعًا إلى غرفتي لأفرغ ما في معدتي من عصارة بلا طعام وسط دموعي. انتهيت لأتمدد في الحمام، لا أدري لكم من الوقت، لكن لم يلحقني علي، لقد انتهينا كما توقعت.

عندما وجدت في نفسي القدرة على النهوض نهضت. غسلت وجهي وتوجهت لغرفة أبي، ليمنعني يحيى من الدخول، حاول أن يحتضنني، إلا أنني دفعته بغل حقيقي.. أيها الحيوان! أنت سبب ما أنا فيه!

جلست معهم قليلًا. كانوا يمثلون متابعة تفاهة ما، وأنا الأخرى كذلك. أراد مازن أن يرحل، إلا أنني زجرته ...لن يرحل أحد منكم اليوم، يكفيني من سيرحل غدًا!

متى نمت؟ لا أدري.. استيقظت بينما غربت الشمس. لم أجده. حتمًا رحل. شرعت بنوبة قيء أخرى.. انتهيت.. تماسكت وهرعت لغرفة أبي، لقد استيقظ هو الآخر. كان منهكًا، وإن كان في انتظاري. جلست بجواره على السرير..

– حمدلله على سلامتك يا بابا.

ظل ممسكًا يدي بين يديه دون إجابة : بصيلي يا بسنت.

رفعت عيني إلى عينيه بعد تردد طال. لو نظرت في أي منهما سأنهار. احتشدت الدموع في عيني على الرغم مني. حاولت التماسك، إلا أنه سارع بترك يدي ليمسك وجهي بيده السليمة..

– انتي عارفة أنا عملت إيه عشانك؟ أنا أقدر أقتله، أدوس عليه زي الصرصار وأفعصه بجزمتي.. كنت بقول لنفسي مش عشانها.. أنا جزمتي أنضف من انها تتوسخ بيه، بس الحقيقة، كل ده كان عشانك، اتحملته عشانك، خدت طلقة في صدري عشانك.. دلوقتي يا بسنت، أنا عايزك تعملي حاجة عشاني!

– أعمل إيه؟

قلتها بصوت مخنوق. شعرت بأصابعه تضغط على وجهي..

– لو مرجعش، تقتليه بنفسك.

الفصل التاسع عشر

أكل العسل حلو بس النحل بيقرّص!!!

* * *

أركن سيارتي في جراج الفيلا، أعرف أنهم حتمًا نيام. أتمنى أن تكون بسنت مستيقظة. أخطو خطى سريعة للداخل، قبل أن أتوقف، ليتها تكون نائمة هي الأخرى. لا أجرؤ على مواجهتها الليلة بعد ما حدث أمس. لا أعرف كيف سأنظر في عينيها مرة أخرى.

كان الأمر كله صعبًا، رصاص ودماء وهلع. للمرة الأولى في حياتي أشعر بذلك الخطر، حينما حملت حسين مع أبنائه إلى السيارة، كان بداخلي مشاعر مختلطة.. خائفٌ عليه؟ لا أستطيع أن أقول ذلك. على الرغم من كل شيء، أتمنى أن ينجو. إن كرهته، فذلك لأسباب لا تجعلني أتمنى موته، لكن للحظة شعرت بشيء عجيب، فكرة طرأت في ذهني وراحت تكبر مع كل ثانية تمر بينما نحن في السيارة. كل قطرة دم يفقدها تشعرني بأنني حي، كل نبضة قلب مضطربة تعني أنني على طريق الحرية! أنا لا أكرهه.. أنا فقط أتمنى أن يتركني وشأني. أنا أعرف أخوة بسنت، وأعرف أنهم راغبون عن عملي معهم، لذا ففي كل لحظة أشعر أنه يضعف، أشعر بأنني أقوى. لحظة نهايته ستكون بداية حياتي السعيدة! سأرحل بزوجتي وابني بعيدًا عن ذلك البيت، بعيدًا عن تلك العائلة، بعيدًا كما قررت منذ طرقت بابهم أول مرة، حتى من قبل أن أعرف شيئًا عن عملهم السري!

صعدت إلى غرفتنا بتوجس. حملت حسين معهم إلى غرفته قبل يوم. أتى الطبيب الذي أخبرنا بهدوء أنه سيكون بخير، حتى من قبل أن يبدأ! كان الرجل يحاول أن يطمئننا، بينما ما فعله هو أنه دمر أحلامي كلها بكلمة! خرجت إلى غرفة المعيشة العلوية أدخن، مفكرًا أنه لا حل سوى الهرب! بسنت توقفت وهي في طريقها إلى غرفتها. أخبرتها ما أفكر فيه فانفجرت. تلك الحمقاء الغبية! ظلت تستفزني حتى أخرجت أسوأ ما بداخلي.. عجيب هو كم الإيذاء الذي قد تسببه بضعة كلمات. راحت

تدور حول نفسها كالمجنونة، إلى أن وجدت مسدسًا ووجهته إلى صدري! وقفت للحظة وأنا عاجز عن الحركة، وهي الأخرى كذلك. كانت ترتجف بينما تلتمع في عينيها دموع أبت الخروج. لو خرجت لأشعرتني بالراحة. هرع إلينا هشام، أخذ يحاول تهدئتها، بينما بدت في عالم آخر. شعرت بالشفقة عليها والرغبة في صفعها في نفس اللحظة! أيتها الحمقاء! لولا غباؤك لكنا بالخارج. أتى مازن لينتزع منها المسدس، بينما هرعت إلى غرفتها. جلست ورأسي يدور، بينما راح هو يتحدث عن أن النساء هستيريات بطبعهن، وأن فترة الشهور الأولى في الحمل تشهد عدم اتزان في هرمونات تجعلهن مجانين بالمعنى الحرفي للكلمة. لم أجب! أعرف يقينًا ما يقول، لكن من قال إنني سأتسامح في رفعها مسدسًا في وجهي؟ من قال إنها ستتسامح فيما قلت؟ أخذ يحمسني للذهاب إليها واحتضانها. لم أتجاوب وظللت صامتًا. لها كل الحق في التمسك بهم، لها كل الحق في التفاني من أجلهم، إنهم يحبونها حقًا. أنا لا أتوقع أن ينصح أي رجل زوج أخته بذلك الشكل. للحظات شعرت أنني غبي لتسرعي في طلب الهرب معها.

كانت تحاول التماسك، وإن بدت مرهقة شاحبة. لا أدري لماذا استرجعت جمالها قبل الزواج. على الرغم مني شعرت بأنني سبب فيما تمر به، لحظة فلحظة تفقد حيويتها بشجارنا المستمر. لماذا أتشاجر إذن؟ لأنني أكره عائلتها! أكرههم جميعًا وأتمنى الخلاص منهم! أكره أخوتها الثلاثة وهم يحومون حولنا طوال الوقت كالكلاب التي تبحث عن ثغرة! أرى مازن ينظر إلي بطرف عينه، يراقب ردود أفعالي معها.. لترى ما ترى وتفعل ما تريد، لقد سئمت تلك الحياة.

نائم على الكنبة، حيث تركت لها السرير. أشعر بدموعها! تتنفس بصعوبة. أسمع شهقاتها في محاولة لتعبئة هواء ندر من الدموع. أشعر بالحزن يأكلني. كثيرًا ما مررت بلحظات تأنيب ضمير تجاه الموظفين في عملي عند توقيع عقوبات علي المخطئ منهم ، لكنني وللمرة الأولى في حياتي أشعر بما هو أسوأ، أشعر بالذنب تجاه الوحيدة التي وهبتها قلبي. هل هناك ما هو أسوأ من أن تبيت حبيبتك باكية بسببك؟ هدأت أنفاسها، فعرفت أنها نامت. أسمع أذان الفجر يردد. نهضت مبدلًا ملابسي. اقتربت لأرى وجهها للمرة الأخيرة، على ضوء خافت آت من خارج

البلكونة، نائمة بتعب، فاتحة فمها لتتنفس. مددت يدي برفق لأعدل وضعية رأسها، شعرت ببلل الوسادة كأنه يحرق يدي. دموعك أغلى من أن أتسبب بها يا حبيبتي!

مر يومي بطيئًا كئيبًا عجيبًا. لقاء سخيف لم أتوقف عنده. عدت بعدها لأفكر فيها. أنا أخطأت بحقها، وأخطأت عندما فكرت بالهرب بذلك الشكل. مع مرور الساعات، كانت فكرة عودتي تصبح أكثر وضوحًا. إلى أن دقت الساعة الحادية عشر، فلم أستطع الانتظار. قدت سيارتي وعدت إليها مهرولًا متوجسًا.

كانت جالسة في البلكونة. رأيت شبحها في الظلام. وضعت يدي على كتفها فانتفضت. نظرت إلي للحظة قبل أن تشيح بوجهها. حاولت أن أعيد الكرة، فأبعدت يدي بيدها.

– معاكي حق.

قلتها بهمس..

– بس انتي لازم تسمعيني..

نهضت غاضبة تاركة البلكونة إلى الغرفة، فهرعت خلفها ممسكًا بيدها. حاولت دفعي بغضب، إلا أنني استجمعت كل قوتي وجذبتها إلى حضني، وأحكمت قبضة ذراعي حولها. كانت تحاول التملص بهستيريا، بغضب، بجنون؛ إلا أنني ومع كل حركة كنت أضمها إلي أكثر فأكثر. شعرت للحظة برغبتي أن أضمها حتى أدخلها بداخلي وأغلق عليها عظامي؛ كي لا تتأذى من أي شيء بهذه الدنيا حتى مني! سمعت شهقة ثم انفجرت في البكاء وقد كفت عن المقاومة. خففت قبضة ذراعي حول جسدها، ورحت أمرر يدي على شعرها مهدئًا ومهدهدًا. شعرت بأنها تضعف، فأجلستها على السرير وركعت على ركبتي أمامها، ليواجه وجهي وجهها..

– أنا آسف يا بسنت، حقك عليا.. أنا غلطت في الكلام اللي قلته مكانش يصح إني أقول كده.

من بين دموعها خرج صوتها مرتعشًا:

– لا، انت قلت اللي جواك، أنا مش هقدر أعيش معاك بعد كده.

أمسكت وجهها بين يدي ورفعته لتواجهني بعينيها..

– أنا رجعت عشانك يا بسنت، عشان بحبك.. رجعت وعارف إن باباكي ممكن يقتلني عشان مشيت، رجعت وأنا مش عايز حاجة من الدنيا غير إني أشوفك.

– أنا بكرهك!!

قالتها وهي تدفع يدي عن وجهها لتعود إلى البكاء..

– وأنا بحبك.

قلتها وعدت لأمسك وجهها بيدي لأقربه مني، طابعًا قبلة على جبهتها..

– أنا هكلم يحيى..

قلتها مبتعدًا. بعدها على السرير تبكي، بينما حادثت يحيى لأخبره أنني في المنزل. أخبرني أنه يعرف، وأنهم لم يناموا بعد.

– بابا عايزك، تعالى أوضته.

قالها وأغلق الخط في وجهي. ألقيت على بسنت نظرة أخيرة قبل أن أخرج. خرجت وأنا أتساءل لماذا لم يناموا بعد؟ حسين يحيا حياة منظمة للغاية، وكونه متيقظًا حتى هذه اللحظة أمر غريب. طرقت الباب ففتح لي مازن بابتسامة واسعة. إلهام ليست هنا، فقط حسين وكلابه الثلاثة.

– حمدلله على سلامتك.

قلتها لحسين، فابتسم بتعب مشيرًا إلى كرسي قريب، فجلست عليه..

– بص يا علي.. من الآخر انت خيّبت توقعاتي برجوعك الليلة.. أنا كنت هقتلك.. رجوعك أثبتلي إنك راجل حقيقي.. يمكن أنا كنت واخد عنك فكرة مش مظبوطة، بس انت النهارده غيرتها.

كنت أنظر إليه مذهولًا، بينما كان يتكلم بابتسامة هادئة:

– انت من الليلة واحد من ولادي.

قالها مشيرًا إليهم. علا الوجوم على وجه يحيى، بينما بدت السعادة على وجه مازن. التفتت لهشام فوجدته يرفع حاجبيه بمعنى مرحبًا!

– مفيش إجبار على الشغل معانا يا علي، بس أنا حابب إنك تكون معانا.

قالها حسين مادًّا يده إلي. نظرت إليه مأخوذًا للحظات، قبل أن أنهض لأمسك بيده.

– رجوعك النهارده كبّرك في نظري.. كونك مخوفتش على نفسك ومرضيتش تكسر قلب بنتي، خلاني أشوفك راجل بجد.

جذبني ليقبل رأسي!! هززت رأسي غير قادر على الحركة أو الكلام.

– مبروك عليكم أخوكم.

شعرت بيد مازن تربت على ظهري بحماس. شعور غريب مر بي، لأصبح فجأة بعد أن كنت كارهًا لهم راغبًا في الهروب منهم، واحدًا من العائلة!

الفصل العشرون

أنا لست أحمقًا!

أنت ببساطة كذاب!!

* * *

عاد علي!

عاد قبل لحظات من نطق أبي بالحكم بإعدامه!

عاد علي!

عاد لأجد مازن سعيدًا، هشام مبتسمًا، أمي راضية، وأبي، أبي في طريقه ليتقبله!!

كيف هذا؟ هل أصابكم عمى؟ هل أنتم حمقى مجانين؟ لا أنكر لحظة أنني من حارب لتزويجه ببسنت. فعلت ذلك لأنها تحبه، لأنها تألمت عندما تركها جبنًا وهرب. فعلت ذلك لأنني أريد سعادتها، فقط لتغفر له هروبه وتقاطعني أنا!!

مع الوقت كنت أحاول أن أتقبله، إلا أنني لحظة بعد لحظة أكرهه أكثر فأكثر. لم يراع النعمة التي سقطت في يديه لحظة. يعنفها؟ يعنف أختي؟ يعنف بسنت؟ قالتها أمي في محاولة لتجعلني أوقف غضب أبي عليه، غير عالمة أنها أشعلت نارًا لن تطفأ أبدًا!

يومها كنت جالسًا أتمنى اللحظة التي يشير إلي والدي بقتله. أقسم بالله أنني لم أكن لأقتله، بل كنت لأجعله يتمنى الموت طويلًا ولا يناله.

كل لحظة مرت علي، أشعر بأنني كنت أحمقًا. كان الصمت ملاذي في كل لحظة؛ لأنني أعرف أن أبي يقوم بدوره معه، إلا أنني ومنذ عرفت أمر حملها، شعرت بغصة في حلقي لم أستطع الخلاص منها! أتأمله.. ذلك الرقيع! ماذا رأت فيه كي

تهيم به إلى ذلك الحد؟ إنه أقل من أن يكون رجلًا! غير قادر على حماية نفسه، فضلًا عن حمايتها. أنظر إليها فتشيح وجهها عني، ناظرة إليه بابتسامة واسعة. كيف فعلت ذلك يا بسنت؟ كيف أسلمتي لذلك الجبان جسدك؟ أنت تستحقين من هو أفضل، تستحقين الأفضل لدرجة أنني لا أجد من تستحقينه على الإطلاق! بعض الجواهر تخلق مدفونة في رمل البحر، أنتِ أول جوهرة قررت أن تلقي بنفسها في الوحل! حسنًا، لم يكن قرارك، أنا ساعدتك فيه بحبي لك ومساندتي لاختيار كان خاطئًا منذ البداية!

– مبروك عليكم أخوكم.

قالها أبي فشعرت بالنار تسري في عروقي! للمرة الثانية هرب فجرًا، لكن الجميع لديهم القدرة على المغفرة، بل والفرحة بعودته! بسنت؟ ستغضب قليلًا ثم تنام في حضنه في آخر الليل. أتخيل المشهد فأخرج غاضبًا، غير مبالٍ بنداء أبي. أنا بحاجة للهواء. ذلك الكلب القذر، لقد أخذ والدي عنه طلقه في صدره، بينما جلس هو يرتجف ويبلل سرواله! عندما عدنا لا أعرف ما حدث يقينًا، لكن ما أعرفه حقًا أنه قال شيئًا أغضبها حتى الجنون! حتى دفعها للتفكير في قتله! ليتها قتلته! أهز رأسي ضيقًا. لا.. هذا أفضل.. لو قتلته لماتت حزنًا عليه. تركها فجرًا ليؤكد أبي أنه لو لم يعد عند منتصف الليل ستقتله هي بنفسها! أشفقت عليها كثيرًا. الآن بعد عودته أتمنى أن أمزقها بيدي!

رأيتها جالسة في الحديقة بينما أنا في طريقي للخروج..

– بسنت!

قلتها صارخاً. رفعت إلي عيناها بهدوء وهي تهز رأسها بتساؤل. لم أعرف ماذا أقول. منذ بضعة أشهر، هذه المرة الأولى التي تلتقي فيها عيني بعينيها. أشرت إلى أعلى بتوتر:

– إطلعي أوضتك الجو برد دلوقتي هنا!

حقًا؟ هل هذا أقسى ما استطعت قوله؟

– يحيى..

سمعت نداءها عندما أوليتها ظهري متجهًا إلى سيارتي فتوقفت. استدرت إليها بينما اقتربت مني متسائلة:

– خلاص؟ بابا قتل علي؟

كان صوتها مرتجفًا تحاول السيطرة عليه..

– متخافيش على سبعك.. بابا أخده في حضنه وقال له حمدلله علي السلامة.

– إيه؟ إزاي! ده كان عايز....

قاطعتها صارخًا:

– علشانك يا برنسيسة! كل ده علشانك! بابا سامحه علشان رجع ومرضيش يكسرك! مازن واقف جنبه علشان يرضيكي! هشام وقف ضدي علشانك، وماما.. أهيه خادماه ليل نهار.. وأنا؟ أنا الحمار اللي عملت المستحيل عشان أخليكي تتجوزي اللي انتي عايزاه حتى لو اختيار غلط؟ طلعت زبالة ومستحقش حتى إنك تبصي في وشي!

كانت صامتة ولم تجب. تركتها وهرعت إلى سيارتي، خارجًا من الفيلا باتجاه شقتي. توقفت للحظة.. لا.. لا أريد أي زن من أي نوع. قدت سيارتي مرة أخرى إلى أحد الفنادق. استملت غرفة وأغلقت هاتفي. تناولت حبة منوم ونمت مقتولًا. لا أريد أن أفكر في أي شيء.

استيقظت منتصف النهار. يااااه.. كنت مرهقًا بشدة. تحممت وجلست في البشكير أنظر من البلكونة إلى النيل، مرتشفًا قهوة آلمت معدتي الخالية. قرحة قد تتحول لثقب، أعرف هذا وأتجاهل أوامر الطبيب، أنا لست رائق البال لأي من هذا السخف.

في المساء فتحت هاتفي، لأجد الدنيا قد انقلبت رأسًا على عقب من أجلي. أبي وأمي وأخوتي و و و..... عدت لإغلاقه مرة أخرى، لأجد اتصالًا من بسنت. توقفت للحظة قبل أن أقرر أن أغلق الهاتف. عدت إلى جلستي مدخنًا. أكلني القلق.. هل هي بخير؟ هل أبي بخير؟ أبي قوي وأعرف أنه حتمًا سينجو. هل حدث شيئًا لأمي؟ هل حاول أحدهم اغتيال مازن أو هشام؟ هل حاول أحدهم إيذاء بسنت؟ انتفضت مرتديًا ملابسي. قدت سيارتي للفيلا متوقعًا الأسوأ، إلا أنني وجدتهم بخير. احتضنتني أمي وهي تطلب مني أن أصعد لأتناول الغداء مع أبي في غرفته.

– علي فوق.

توقفت للحظة أمامها. سأموت كمدًا! شعرت بدوار مفاجئ، تنفست ببطء، قبل أن أتمالك أعصابي وأخبرها أنني مشغول..

– أنا جيت أتطمن عليكم وبس.

كدت أخرج، إلا أنها أوقفتني بأنني يجب أن أرى أبي. هززت رأسي رافضا... ألحت فصعدت لأجد أبي جالسًا في البلكونة ومعه علي وبسنت. أشرق وجهها عندما رأتني، في حين بدا الوجوم على وجه أبي:

– شرفت؟

هززت رأسي أن نعم: أنا جيت أتطمن عليك وبس.

ظل ينظر إلي بابتسامة تحوي من الغل ما لو فتح مع فمه لأحرقني حيًا! في النهاية اختفت ابتسامته..

– لا ابقى ريح نفسك.. متجيش هنا تاني، ولا اشوفك في أي حتة لغاية ما أموت.

– بابا!!

قالتها بسنت مستنكرة، في حين بدا على وجه علي توتر حقيقي. هززت رأسي هزة بلا معنى وكدت أخرج، إلا أن صوته اخترق أذني: ويوم ما أموت متبقاش موجود لا في دفنتي ولا في العزا.. انت كلب.. لا، أنا لو ربيت كلب كان هيبقى طوعي عن كده! مكانش هيعصاني.

خرجت مندفعًا، في حين أنني رأيت أمي تحاول أن تمسك بي لتفهم ماذا حدث. تملصت منها عدوًا إلى سيارتي.

– يحيى!!!

صوت صراخ بسنت..

– يحيى!!!!

أفتح أزرار القميص وأنا أشعر بانعدام الهواء. شعرت بها تمسك بذراعي. حاولت أن أبعدها فتعلقت بي أكثر. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أدفعها بقوة. صرخت وقد سقطت أرضًا، تنظر إلي مذهولة! سمعت صوت مازن يتساءل ماذا حدث. هشام أيضًا.. أتوا تؤا. علي ينهض بسنت وهو ينظر إلي بحقد. أبي آتٍ يتعكز على أمي من خلفه..

– اطلع بره يا حيوان! بره! مشوفش وشك هنا تاني!

ركبت سيارتي خارجًا من الفيلا لا أنوي على شيء. للمرة الأولى في حياتي أصبح بلا عمل، للمرة الأولى في حياتي أشعر أنني في خطر، بعد أن رفع أبي يده عني، للمرة الأولى في حياتي تغرقني دموعي بهذا الشكل.

الفصل الحادي وعشرين

الحرب خدعة.. قد تكون متعبة، مرهقة، قاتلة؛ لكن الخداع أفضل ما فيها!

* * *

هل من الممكن أن تشعر باليتم ووالدك حي في غرفة ملاصقة لغرفتك؟

هذا ما كنت أشعر به وعلى مدار أيام. حزن شديد تملكني. لحظات عودة علي، اعتذاره، جعلتني هائمة في دنيا من السعادة لم أشعر بها من قبل. للمرة الأولى أشعر بالاستقرار، للمرة الأولى يرضى أبي عنه، للمرة الأولى أنام في حضنه قريرة العين.

لا أدري سببًا، لكنني مؤخرًا مع كل قبس من السعادة تأتي معه كارثة تحطم سعادتي. تلك اللحظة تجسدت في طرد يحيى من المنزل. لا أدري عدد المرات التي تمنيت فيها أن يخرس صوت أبي، لكن هذه حتمًا كانت منها! خرجت خلفه لأتمسك به، إلا أنه دفعني بغضب! غضب كتمه منذ أشهر طويلة. قبلها بليلة أخرج شيئًا من مكنون قلبه. لقد كنت حقًا قاسية عليه. قررت في لحظة مسامحة الجميع إلاه! قتله تجاهلي له دون أن أدري. لماذا فعلت ذلك؟ لماذا تماديت في غضبي منه، وهو كل ما حاوله هو إسعادي؟ كرهت نفسي وأنا أراه يخرج مكسورًا أمام الجميع. أبي يصرخ فيه وهو يركب سيارته شامخ الرأس بكبرياء ممزق، علي يساعدني على النهوض، لأهرع إلى غرفتي وأختفي عن الأعين. شعرت بقطرات الدم تسيل على فخذي.. لا! لن أسمح لأحد أن يحمله مسؤولية ما قد يحدث لجنيني، يكفيني أنني ضغطته حتى انفجر غضبًا، وكنت سببًا في طرده من المنزل.

نائمة على ظهري يدسون الطعام في فمي دسًا، أمي تارة، وعلي تارة، وهشام تارة. لا أفهم سبب اهتمام هشام المفاجئ، هو دائمًا وحيد، حياته منغلقة بشكل كبير عنا. وجوده مؤخرًا وإن أثار الدهشة في نفسي، إلا أنه أشعرني بالسعادة . سعادة حتمًا لم تزل شعور اليتم الذي شعرت به. لربما كنت غاضبة من يحيى مبتعدة عنه، إلا أن هذا لا يمنع أنني أعرف جيدًا من هو إلي، ومن أنا إليه. في أقسى لحظات ضيقي،

كنت أرى شعيرات ذقنه النامية، هالات سوداء تحت عينيه، بشرة شاحبة؛ فأشعر بالضيق. أكاد أخرج عن غضبي لأساله عن حاله، إلا أنني أعدل عن ذلك، هو أيضًا كذلك. جينات حسين ورثناها جميعًا، ويجري في عروقنا كِبره! لربما لو كنت أحمل جينات أخرى لتنازلت عن الكبر وسألته! أشعر بالحزن على كل لحظة قضاها معي تحت سقف واحد ولم أهتم به كما اهتم بي.

كبر يحيى وهذا حق، صار أكثر عصبية وأميل للتعنت. وما وظيفة الأبناء إذن؟ كان له عليّ حق رعايته في ضيقه، لا أن أسيء معاملته وأقسو عليه. تتندر أمي أنني أول مرة نطقت كلمة بابا كانت ليحيى، لا لأبي، وأنني وحتى بدأت أعي واستوعب، كنت أظنه أبي! حتى هذه اللحظة يا يحيى أنت أبي، أراك أبي.. لماذا لم أحسن إليك إذن؟ تتقلص أحشائي.. هذا الطفل لو بقي سيولد مشوهًا! إن لم يقتله حزني، سيشوه خلقته حتمًا!

بضعة أيام مضت ولا شيء يحدث. الجميع أخذ كلام أبي أمرًا مسلمًا به، حتى أمي، حاولت أن أفاتحها في الأمر فطلبت مني الصمت..

– شهرين تلاتة ونبدأ نكلم بابا!

شهرين تلاتة؟! يحيى وحيد، يحيى ذراع أبي اليمنى، يحيى ذو الأعداء المتربصين، متى سيكون وقتًا مثاليًا للتخلص منه، إن لم يكن الآن؟

أسأل مازن عنه، فيخبرني أنه بخير، في إجازة سيعود منها ليبدأ عمله الخاص. يحيى هاوي شراء للعقارات، يبدو أنه كما قال لمازن قرر أن الوقت قد حان للإتجار فيها. لن يكون بخير، لن يكون بخير أبدًا!

استيقظت في ذلك اليوم وأنا أنوي زيارته. هاتفه مغلق، لابد أنه تخلص من ذلك الخط. تسللت إلى مكتب أبي حيث يحتفظ بنسخ من مفاتيح شقق أخوتي، أخذت المفاتيح كلها، فأنا لا أعرف أيهم يفتح شقته. أخذت سيارة أمي دون أن أسألها، لست بحاجة إلى أي كلام الآن. اتجهت إلى شقة يحيى وركنت السيارة. الشارع الهادئ الذي قد تذبح فيه أسرة من ثلاثين شخصًا دون أن يدري أحد! صعدت إلى الشقة،

وأخرجت المفاتيح ورحت أجربها. يحيى يقظ، يسمع أقل حركة وينتبه لها. للحظات شعرت أنه سيفتح الباب، إلا أنه لم يفعل! في النهاية لان لباب لاحد المفاتيح ودخلت إلى الشقة. لم آت إلى هنا من قبل، وقفت مأخوذة باختيار الألوان والأثاث لثوانٍ. ابتسمت على الرغم مني. هذا ببساطة يحيى!

هل أدخل للبحث عنه؟ لا أدري حقًا! أنا لست حمقاء، وأعرف أن أخوتي حتمًا ليسوا أنبياءً، بل إن السبب الرئيسي لانفرادهم بحياتهم أنهم ليسوا أنبياءً! ترددت للحظة قبل أن أنادي عليه: يحيى!

على استحياء أول مرة، ثم رفعت صوتي ثم ناديت بتوتر: يحيى!!

هذا ليس جيدًا! اتجهت إلى الغرف، مفتوحة فارغة، تتوسطها غرفة خمنت أنها غرفة نومه، مفتوحة هي الأخرى ولا مجيب.. رباه اجعله حيًا سليمًا! أطللت برأسي من الباب للداخل، كان نائمًا!! نائمًا؟! لو أنها غيبوبة لاستيقظ منها! تراجعت للخلف لأنه كان عاري الجذع. ظللت واقفة خارج الغرفة للحظات طالت. ماذا لو كان مريضًا؟ ماذا لو كان ينازع الموت؟ ماذا لو دس له أحدهم سمًا؟ استجمعت شجاعتي ودخلت لأقترب منه. يتنفس بانتظام، لكنه في نوم هو أقرب حقًا إلى الغيبوبة! مفتوح الفم تتصاعد منه رائحة الكحول الكريهة. نظرت حولي لأجد جردل الثلج يحوي ماءً مثلجًا. فكرت أن أسكبه على رأسه ليفيق، إلا إنني تراجعت عندما فكرت في رد فعله! توقفت للحظة. أخرجت هاتفي والتقطت له بضعة صور وتركته نائمًا وخرجت. هاتفت مازن وطلبت منه أن يعين من يحميه بدون علم أبي فوافق! ضع عدم رغبة ابي في أي شيء في جملة مفيدة وسوقها لمازن، وسيبتاعها منك بأعلى الأسعار!

عدت إلى الفيلا منهكة راضية. سألني علي أين كنت، فأخبرته أنني كنت أزور يحيى. سألني عنه دون اهتمام، فجاوبته أنه في أفضل حال. هز رأسه بلا اكتراث مما أغاظني! هو يعرف حبي ليحيى، فلماذا لا يحاول أن يمثل الاهتمام من أجلي؟

جن الليل فخرجت قاصدة أبي. وجدته في الحديقة فاتجهت إليه. سألني عن صحتي وعن الجنين، وأنا أجيبه بنصف عقل في محاولة لإيجاد الطريقة التي سأبدأ بها كلامي. ظللت صامتة للحظة، فأشار إلي:

– قومي بقى أنا عايز أرتاح!

– وأنا عايزة أتكلم معاك.

حك ذقنه بضيق. حتمًا يعرف ما أنا بصدده.

– بابا من فضلك اديني فرصة اتكلم من غير ما تقاطعني.

هز رأسه أنه سيفعل، فأخذت نفسًا عميقًا وانطلقت:

– أنا عارفة إن حضرتك أهم حاجة عندك في الدنيا شكلك وسمعتك قدام اللي حواليك، يرضيك السمعة دي تتهز؟

ظل ينظر إلي بثبات دون إجابة، فأكملت: في ناس اتجرأوا وضربوا نار عليك.. بكره لو حد شم خبر إنك مقاطع يحيى هيقتلوه، دي أفضل فرصة لكده.

ابتسم وهو يهز رأسه: بسنت.. هو أنا عبيط؟

هززت رأسي أن لا، فأكمل: أنا اللي مخلفك مش انتي اللي مخلفاني، أنا اللي أعرف ازاي أكلمك وأقنعك، لكن الهبل اللي بتعمليه ده مش هيخليني أغير رأيي، ولولا انك حامل، أنا كان هيبقى ليا رد فعل تاني معاكي عشان كلمتيني في موضوع أنا طلبت محدش يكلمني فيه!

– أنا كنت عند يحيى النهارده في شقته.

نظرة غل جعلتني أتراجع في جلستي. تفاديت نظراته وأخرجت هاتفي بحثًا عن صورة يحيى..

– أنا خبطت الباب، الجرس، دخلت الشقة، لغاية أوضة نومه وحاولت أصحيه، بس هو كان كأنه في غيبوبة.

– تلاقيه كان شارب!

قالها بلا مبالاة. وضعت الصورة أمامه..

– بس بص للصورة دي.. أنا ست، وحامل، وعملت إزعاج الدنيا، بس قدرت أوصل لأوضة نومه.. تفتكر مش سهل أي حد تاني يعمل كده؟

– بسنت.. خدي الموبايل واطلعي أوضتك، ومتخرجيش منها غير أما أبقى أبلغهم يقولولك.

قالها بهدوء واثقة أنه مصطنع. أخذت هاتفي وذهبت. سامحني يا يحيى، لم أقصد أن أجعلك ضعيفًا، لكن أبي مجبر على حمايتنا.

طلب أبي علي، لماذا؟ ليعنفه أنني خرجت دون علمه طبعًا! صعد إلي علي يرغي ويزبد فتجاهلته. لماذا لم يطلب يحيى حتى الآن؟ أنا أعرف أبي جيدًا، قد يتمسك برأيه في أي شيء، إلا عندما يشعر بالخطر علينا. تشاجرت مع علي حتى بح صوته. أستطيع أن أكون مستفزة متى أردت. لست رائقة البال لهذا الهراء. ذهب لينام، بينما أنا عاجزة عن النوم أو الحديث مع أمي لأعرف ماذا يحدث. لربما لو أخبرتها لأثرت عليه ببعض هيستيريا الأمهات المحببة إلى أنفسهن. مرت الساعات بطيئة كئيبة، حتى رأيت سيارة مازن تدخل الفيلا، ويخرج منها مازن ويحيى ويتبعهم هشام. اتسعت ابتسامتي وأنا أشعر بانتصار حققته بأقل أضرار ممكنة!

الفصل الثاني والعشرون

ولكنه.. يحيى!!

* * *

– الوضع ده لا يمكن يتسكت عليه!

قالها مازن من بين أسنانه..

– انت عايز تتجابن وخلاص، لكن أنا مش هسكت!

لم أجب. ظللت صامتًا أنظر إلى يحيى فاقد الوعي مضرجًا بالدماء، الكدمات تعلو وجهه حتى صار من الصعب تحديد ملامحه.

– أنا مش هقف ساكت قدام اللي أبوك بيعمله!

قالها مازن، فوددت أن أنتزع حنجرته ليصمت! هل ترى الوقت مناسبًا لذلك؟

– انت شايف عمل إيه؟ انت شايف إننا نسكت؟

أغمضت عيني بقوة، محاولًا تمالك نفسي. حقًا لا أدري ماذا أفعل، بل إنني لا أدري ماذا يحدث أصلًا!

يحيى يكره علي! صار الأمر واضحًا وضوح الشمس في كبد النهار. ربما كان هو سبب دخوله ذلك المنزل، لكن موقفه تبدل مائة وثمانين درجة بعدها. هو يقول إن علي يسيء معاملة بسنت، أنا أقول إن علي يأخذ اهتمام بسنت! هذا سبب أكثر من كافٍ ليقتله يحيى. هناك نوع غريب من التعلق بها، كل أب يعرفه. قد يبدو الأمر كوميديًا، لكن عادل إمام عبر عنه ببراعة، في ذلك الفيلم الذي كان يحاول التفريق بين ابنته وزوجها بأي طريقة! يحيى لا يرى سواها ابنة وأخت. تعلقه المرضي بها كانت لتخف حدته لو تزوج وأنجب، لم يكن ليختفي، بل فقط تخف حدته!

عودة علي بعد فراره كانت وبالًا علينا. شخصيًا تمنيت موته، إلا أنني فوجئت بردة فعل أبي، ضم علي إلينا كأنه كان يتمنى عودته! طلب منا أن نتقبله أخًا فلم أعترض. الأمر لا يعني شيئًا بالنسبة إلي، إلا أنه فجر براكين الغضب بداخل يحيى. خرج غاضبًا، بينما أبي يناديه بلا إجابة. صمت أبي، وصمته كان يعني الكثير. حاولنا أنا ومازن كثيرًا أن نهاتف يحيى لنجد هاتفه مغلقًا. في اليوم التالي عدت لأجد أبي يطرد يحيى! لم أعرف ماذا حدث، لكنني أعرف أن أبي كان غاضبًا بشدة لعدم تقبله لعلي كما أمر! خروج يحيى مطرودًا ترك في حلقي غصة من أبي، ترك في قلبي كرهًا تجاه علي. أعرف يقينًا أنه لم يسئ إليه، لكنني لا أستطيع إلا أن أفكر أنه بشكل أو بآخر، كان سببًا في طرد يحيى من العائلة.

بضعة أيام مضت ويحيى منبوذ. أزوره فيحاول أن يبدو بخير، إلا أنني أرى حتمًا أنه ليس كذلك. يحيى كان المفضل لدى أبي، يجد نفسه فجأة خارج جنته. نوع من الحزن الراقي يأتي في ابتسامة رافضة الخوض في أي حديث عنه مع مازن. يرفع رأسه مؤكدًا أن تجارة العقارات ستضاعف ثروته. أعرف أنه ذكي بارع، لكن فكرة كونه يتخلى عن عملنا بين ليلة وضحاها ليبدأ من جديد، هو أمر لا أستطيع استيعابه!

بضعة أيام مضت قبل أن يحادثني أبي طالبًا مني أن آتي بيحيى ومازن إليه. للحظة شعرت بالخوف. أبي ليس من النوع الذي يتراجع عن مواقفه وإن تيقن أنه مخطئ. هاتفت مازن فتوجس خيفة هو الآخر، وإن أنهى مكالمته بأن أبي رجل عملي، وهو دائمًا ما كان يعتمد على يحيى، لذا فهو حتمًا بحاجة إليه في أمور العمل ليس أكثر.

عندما مررت على يحيى، كانت تتقافز من عينيه سعادة انتصار. أبي كبير، أبي مصاب، لربما لم يجد حلًا سوى أن يترك الأمر كله ليحيى. فكرت في ذلك أنا الآخر وأنا أدخل الفيلا خلف يحيى. كان يسير بخطوات ثابتة واثقة. أقبلت أمي تحتضنه فقبّل رأسها. همست أمي أن أبي يريده بمفرده في المكتب. كاد يتحرك، إلا أنه توقف ليسأل عن بسنت. أخبرته أمي أن أبي منعها من الخروج من غرفتها، فتجهم وجهه. تحرك مرة أخرى إلى غرفة أبي وأغلق الباب خلفه.

جلسنا صامتين لفترة طويلة، إلى أن سمعت صراخ يحيى الغاضب يهدر من الداخل. هرع مازن ليدخل إليهم، فمنعته أمي بإشارة من يدها. كان صوت يحيى يهدر أولًا، ثم سمعت أبي. الصراخ كان عاليًا، حتى رأيت علي ينزل مرتديًا بيجامة نوم، سألنا ماذا يحدث، فأجبته ببرود: ده يحيى وبابا!

خرج يحيى غاضبًا، بينما صرخ فيه أبي أن يتوقف. استدار إليه ليجد الصفعة تستقر على وجهه!

هل تعرف تلك اللحظة التي يقف فيها كل شيء حولك؟ للحظة بدت وجوه الجميع أمامي ثابتة. شعرت أن الساعة توقفت، شعرت أنني تمثال شمع عاجز عن الحركة. لربما لحظتها توقفت الأرض والشمس عن الحركة كذلك.

– لما أقول لك أقف تقف!

قالها أبي رافعًا يده ليعيد الكرة، فأوقفه يحيى ممسكًا يده، دافعًا إياه إلى الخلف. شهقت أمي وإن ظلت محافظة على مسافتها منهما مثلنا.

– أنا اللي مش عايزك في حياتي، أنا اللي مش عايزك أبويا!

قالها يحيى وخرج صافقًا الباب خلفه. ظل أبي صامتًا بلا ردة فعل، سوى أنفاسه ذات الصوت العالي.. شهيق فزفير.. شهيق فزفير، ثم عاد إلى غرفة مكتبه وأغلقه مرة أخرى.

لم أدر ماذا أفعل، هل أرحل؟ هل أكلم يحيى؟ صعد علي إلى بسنت وكذلك صعدت أمي إلى غرفتها. لم أجد بجواري سوى مازن، كدت أكلمه، إلا أنني عدلت عن الفكرة، لن يزيد الأمر عن كلام مازن المعتاد. أخيرًا فتح أبي الباب وأشار إلينا بالدخول. جلس خلف مكتبه، ثم طلب مني أن آتي بعلي. هاتفت علي لينزل فنزل. جلسنا في صمت منتظرين أوامر أبي.

– أنتم هتاخدوا اتنين معاكم وتجيبولي يحيى على مخزن المريوطية!

رفعت رأسي إليه مذهولًا، فوجدته جادًا. استدرت إلى مازن فرأيته منكس الرأس صامتًا. علي الوحيد الذي هز رأسه أنه حسنًا، مما جعل ضحكة كادت ان تفلت على الرغم مني. علام توافق أيها الأحمق؟ هل تعلم ما هو مخزن المريوطية؟ هل تعلم مصير كل من ذهب إليه؟

– أنا آسف يا بابا.

قلتها ناهضًا..

– أنا مش هعمل كده!

وجدت مازن ينهض هو الآخر ممسكًا بهاتفه ومفاتيحه، مؤهلًا نفسه لخروج دون اعتذار. هز أبي رأسه كأنه يتوقع..

– يبقى علي هو اللي باقيلي! أنا كنت بس حابب أشوف مين معايا ومين لا! اتفضلوا.

خرجنا أنا ومازن، وأنا أشعر بأنني أحمق. ما الذي جعلني أتخيل أن يقدم أبي على قتل يحيى لمجرد شجار؟ كان الفضول يأكلني لمعرفة سبب استدعائه له اليوم، ومعرفة ما دار بينهما، وعلام تشاجرا؛ إلا أن الأحداث فرضت نفسها بقوة.

ودعت مازن وذهبت إلى ذلك الديسكوتك، أنا بحاجة إلى صداع أشد مما أنا فيه لأنسى. تتراقص أمامي بجسها النحيل. الحقيقة أنني لا أحب المرأة النحيلة، ذلك النحول المرضي يقززني، إلا أنها كانت تمتلك أجمل عينين رأيتهما في حياتي، ابتسامة قد تضيء الليل نهارًا إن أرادت. راقصتها بعض الوقت، ثم دعوتها لقضاء الليلة فوافقت. دلفت إلى الباب وتركتها تتجمل، وأنا أهيئ المكان للجلسة. الهاتف يئز، جعله صامتًا لا يعني أنه سيصمت! رفعت الهاتف لأجد مازن يصرخ من الجانب الآخر: بابا كان بيتكلم بجد! علي أخد الرجالة وأخدوا يحيى على المخزن!

هرعت حتى دون أن أخبرها أنني راحل. أوقفت سيارتي أمام المخزن، لأجد سيارة مازن قد سبقتني. جثتين لرجلين لابد أن مازن أرداهما . هرعت للداخل لأجد مازن

يفك وثاق يحيى بينما هو فاقد الوعي. حملناه إلى سيارة مازن، وهرعنا به إلى منزله. هاتفت الدكتور جميل، فأخبرني أنه آتٍ حالًا. انتظرته طويلًا بينما يحيى ينزف أمامي. عدت لأهاتفه، لأجد هاتفه مغلقًا. اتصال وارد من أبي يطلب مني ألا أزعج دكتور جميل لأنه لن يأتي! يمكننا أن نتخلص من جثته بالطريقة التي نريدها! قالها وأغلق الخط!

هرع مازن ليأتي بطبيب آخر يكون أهلًا للثقة. كنت أشعر بيحيى يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يدي بينما أنا عاجز. كيف طاوعك قلبك يا أبي؟ هذا يحيى! يحيى! أول فرحتك، بكري أبنائك، ذراعك اليمنى، كاتم أسرارك؛ كيف هان عليك أن تتركه ينازع الموت بتلك الطريقة؟؟ لماذا صممت أن تهينه أمام علي بهذا الشكل؟ لماذا صممت على كسره أمام رجاله بهذا الشكل؟ التمعت في عيني دموع أبت الخروج. لقد صار ما تفعله خطرًا. هذا يثبت لي الأمر الذي حاولت دائمًا تأكيده وإن تجاهلناه. أنت حقًا بلا غالٍ!

هل أحببت بسنت أكثر؟ كنت على استعداد لتنفذ لها ما أرادت ولم تؤذها إلى هذا الحد، بل إن هذه الحرب قامت من أجل زوجها! فيم تفكر؟ أيهما أقرب إليك؟ لماذا قررت أن تبيعنا جميعًا من أجله؟

– هنعمل إيه؟

هززت رأسي بلا معنى..

– نتطمن الأول على يحيى وبعدين نشوف!

خرج الطبيب ليخبرنا أن علينا أن نذهب به إلى المستشفى. الإمكانيات هنا لا تساعده..

– أخوكم عنده إصابة في العمود الفقري، لازم يتم التعامل معاه بحرفية وإلا هيتشل بقية حياته.. انتم نقلتوه بشكل غلط للمكان الغلط! لازم تلحقوه!

الفصل الثالث والعشرون

ولكنه.. يحيى!!

* * *

متى ينتهي هذا الجحيم؟ أتساءل وأنا أرى يحيى مسجي تحيط به الخراطيم من كل اتجاه. اضطررت لنقله للمستشفى خوفًا من كلام الطبيب. في المستشفى أكدوا لنا أن إصاباته بالغة، ولكنه سيكون بخير. محضر؟ هذه أمور بأيدينا تمامًا وحتمًا لن نخرجها للتحقيق. وددت أن أفعلها حقًا، وددت أن أتهم حسين بأنه تسبب في ذلك! وددت لو أراه مرتديًا البذلة الزرقاء أو الحمراء!! حسين أيها الوغد! أنت هالك لا محالة!

وجه هشام يعكس الكثير، صامتًا وصمته يعني كارثة! هشام من النوع المرح الغير مبالٍ؛ لذا فصمته اليوم يعني أنه في أول الطريق الذي بلغت أنا آخره يومًا. الوقت مناسب لأحدّثه فيما أنا بصدده، حسين يجب أن يموت!!!

نقتل أبانا؟ نعم نفعلها! وبضمير مستريح سأنام بعدها قرير العين، وقد شعرت أنني أخذت ثأري. اليوم حقًا لا يشغلني ثأري القديم قدر ما يشغلني ما فعله بيحيى، يحيى المفضل لديه. كنت دائمًا أنظر إلى يحيى بضيق، متمنيًا أن تأتي اللحظة التي يعترض فيها، يراجعه في أي شيء! إلا أن يحيى كان دائمًا وأبدًا سياسي حكيم، تعامل مع أبي بخفة مدرب الأسود، لكن اليوم ترك حكمته، اليوم ثار وأخرج مكنون قلبه، اليوم وقف أمام أبي لتتكشف الحقيقة الكاملة أمامنا.. حسين لا يهتم إلا لنفسه.

بسنت أخبرتني بما كان فصمتت. لم أخبر هشام، وحتمًا لن أفعلها يومًا. هي أرادت إصلاح الأمور، فتهدم المعبد على رؤوسنا. ليس خطؤها، أكلت آفة الأرض أساسات هذا المنزل منذ وقت بعيد، فقط كان ينتظر رياحًا عاتية لتهدمه، أو لربما غير عاتية.

نحن نمثل طوال الوقت أننا عائلة، لكن الحقيقة عكس ذلك، نحن أبناء مختل مجنون سيطرة! لم يرد أبناءً قط، فقط أراد دمى ليعبث بها حيث يشاء. تظن بسنت أن

الأمور كانت لتجري للأفضل. كان أبي ليخضع لخوفه على يحيى. أنا لا أعرف يقينًا ما دار بينهما وأدى للشجار. لابد أن إهانات أبي تخطت كل الحواجز، ليفقد يحيى أعصابه بتلك الطريقة. ما أعرفه حتمًا أن يحيى لو صمت وتقبل الإهانة، لما أعاده أبي مرتبته القديمة! مجرد فكرة أنه عارض له أمرًا، كانت لا تُغفر بالنسبة إليه!

تركه يموت بين أيدينا! لو أنه أرداه لحظيًا، لما كان الأمر بذلك السوء. لقد أراد له الإهانة، أراد له الذل. احتشدت دموع الغل في عيني. لو أصابك سوء يا يحيى، أعدك بأنني سأعذبه! سأنهيه في كل الأحوال، لكن لو أصابك سوء سأجعله يقبل حذائي من أجل رحمة لن يجدها في قلبي! لم يرحمني يومًا، لم يرحمنا يومًا، لم يرحمك يومًا.. من لا يرحم لا يُرحم.

تهاتفني بسنت لتتساءل عن سبب خلاف أبي ويحيى، هي لا تعرف، علي الكلب لم يخبرها حتمًا! أعترف له أنه تفوق علينا جميعًا. هو يعرف جيدًا أنه لو أخبرها بما صار، لقتلته بلا رحمه. قد يكون حب حياتها، ولكن هذا.. هذا يحيى!!!

كدت أخبرها، إلا أنها أخبرتني أنها خائفة، تشعر بالجنين يتسرب من أحشائها، وهي غير قادرة على التصرف!

– لو بابا عرف إني بنزف هيتخانق مع يحيى تاني عشان الدم نزل يوم ما يحيى وقعني.

اعتصر قلبي شفقة عليها..

– قولي لماما يا بسنت ومتجيبيش سيرة يحيى.

قلتها وأنا أحاول إنهاء المكالمة..

– طب يحيى كويس؟ طب هو زعلان مني؟ انت قلت له؟

أتأمل يحيى النائم من خلف زجاج الغرفة..

– يحيى كويس يا بسنت، بس مش بيتكلم.. متضايق.. أنا مقلتلوش حاجة، وأوعدك إني مش هقول له، بس إوعديني تقولي لماما تاخدك المستشفى، عايزك كويسة.

قلتها وأنا أتمنى من قلبي أن تفقد جنينها. عندما أقتل حسين سيكون لدي دافع قوي أمامها وأمام أمي، عندما أقتل علي سيكون دافعي أنه كان ممن تسببوا في أذى يحيى، لكنني بعدها لن أقدر على أن أحيا وأنا أرى يوميًا طفله أمامي، ابن علي، حفيد حسين! هذا الطفل يجب أن يموت الآن!

ظللنا بجواره يومين وهو لا يستجيب. أخبرنا الطبيب أنه سيفيق حتمًا.

– إدوله يوم كمان!

شعرت للحظة برغبة في لكمه. هذه ليست مستشفى إنها سوق خضار!!!

كنت أنام على الكرسي حينًا وعلى سرير المرافق حينًا، بالتبادل مع هشام الذي رفض الحديث عن أي شيء حتى يفيق يحيى.

– يفتح بس عينيه وبعدها نشوف هنعمل إيه.

يقولها كاذبًا. أرى في عينيه النتيجة التي وصلت إليها، هو فقط خائف من الاعتراف بها، خائف من الجهر بها، خائف أن يقولها بصوت عالٍ ليسمعها بأذنه.. يجب أن يموت حسين!

شعرت بالباب يفتح فانتبهت، لأجد حسين يدلف إلى الغرفة. نهضت أنا وهشام، إلا أنه تجاهلنا متجهًا إلى يحيى. وقف أمامه للحظات ظننت معها أنه سيعتذر له بهمس، سيدمع، أو حتى يبدي ندمًا؛ إلا أنني وجدته يرفع إلينا وجهه بابتسامة هازئة..

– هو ده بقى كبيركم؟

تسارعت دقات قلبي حتى شعرت أنه سينفجر!

– عامة أنا مش هحاسبكم ع اللي فات، انتم عارفين كويس إني لو عايز أقتله كنت قتلته، لكن لا، أنا عايزه حي! عايزه يقضي بقية حياته عاجز، عشان يفكر في كل لحظة إنه غلط في أبوه!

عجزت عن الكلام أو الرد! هربت الكلمات مني أمام منطقة المختل. نظرت إلى هشام مذهولًا، لأجده مطأطئ الرأس صامتًا. هذا الرجل مجنون! هو حتمًا مجنون!

– ده درس ليكم انتم كمان! اللي فيكم يحب يتخطى حدوده معايا يقوللي من دلوقتي، أهوه احنا في المستشفى عشان منروحش بعيد!

قالها وضحك!! يراها نكتة!!

– إحنا آسفين يا بابا.

خرجت من هشام!

– أوعدك إن اللي حصل ده مش هيتكرر تاني من أي حد فينا، بس أرجوك شوف حل.. يحيى لو مفاقش هيبقى دخل في كوما!

ابتسامة هازئة على وجهه: متخافش يا حبيبي.. هيفوق، هيفوق عشان أنا عايزه عاجز!

قالها وأنا أشعر أنني أنا العاجز، لا أدري ماذا حل بي، إلا أنني وبعد خروجه وجدتني أمسك برقبة هشام معتصرًا إياها بغل: آه يا ابن الـ*********

راح يحاول التملص من يدي حتى استطاع أن يدفعني بعيدًا عنه. لكمة فأخرى فثالثة، حتى شعرت بالدماء تملأ فمي..

– يا غبي!!!

قالها غاضبًا وتركني ليتجه إلى سرير يحيى. وقف للحظات ليراقب إذا ما تأثر بالضوضاء. دخل الحمام ليخرج بمنشفة مبلولة ليلقي بها إلي..

- انت غبي يا مازن! غبي وجبان! انت أكتر واحد بتخاف منه! وقفت قدامه من غير ما تنطق الحرف! ودلوقتي جاي تتشطر عليا!

كانت أنفاسي تتسارع حتى انفجرت الدموع من عيني. وجدته يمسك يدي: إحنا مش هنتصرف غير لما يحيى يفوق.. أتطمن إنه فاق وبعدها.....

- بعدها إيه؟ انت شايف عمل فيه إيه؟ ده يحيى! يحيى أقرب واحد ليه! أومال احنا هيعمل معانا إيه؟!

- مش هيعمل، أوعدك إنه مش هيلحق يعمل.

ثم قالها بتصميم..

حسين لازم يموت، وفي أسرع وقت!

الفصل الرابع والعشرون

ولكنه.. يحيى!!

* * *

أيوه يا سعادة الباشا ..... زي ما أمرت نقلوه المستشفى ..... لا هو كويس ..... كويس والله ..... لا متقلقش ..... هو كويس ..... لا سليم ..... هيمشي متخافش، بلغتهم جنابك ..... لا هما لسه عنده ..... شكلهم هيباتوا معاه ..... حاضر هبلغك لو في جديد، مع السلامة ..... في رعاية الله.

أنهيت المكالمة ووضعت الهاتف بجواري. أغمضت عيني بقوة أحاول تنظيم أنفاسي. فلتهدأ يا حسين. هو بخير. أتأمل إلهام النائمة لا تدري شيئًا عما جرى، ولن تعرف شيئًا في يوم من الأيام. غضبها من أجل أبنائها سيكون كاسحًا، لن ترحمني، أنا أعرف ذلك جيدًا. جلست بإنهاك. كان يجب أن تتم الأمور كما تمت. لم يكن لدي بديل. ابني هو، بكري، سندي؛ أعرف هذا، ويؤلمني ما حدث، لكن لم يكن لدي خيار آخر.

أرحت جسدي بجوار إلهام مغمضًا عيني بقوة، أراجع كل لكمة، كل صفعة، كل ضربة، كل قطرة دم سالت منه، كل صرخة ألم مكتومة، وكل صرخة ألم لم يستطع كتمانها. يتقلص قلبي داخل ضلوعي بشدة. آآه يا يحيى.. أنا آسف يا بني.. أنت تعرف أن أباك يحبك، يكفيني هذا!

علي؟ في البداية لم يفهم، وعندما فهم شعر بالهلع، وإن لم يتراجع. كنت أتأمله مذعورًا ينظر إلى ما يجري، ينظر إلي في يأس. لابد أن يرى ما يجري. يجب أن يعرف كيف تتم الأمور هنا!

– آآآآآآآه...

خرجت منه رغمًا عنه، ومعها الكثير من الدماء.

– يا عمو كفاية.. كده هيموت!

هززت رأسي مؤمنًا على كلامه وإن لم أوقفهم! ليس الآن! لماذا ظننت أنني هنا أيها الأحمق؟ كان علي أن أرى ما يفعلون. أنا أعرف متى يجب أن يتوقفوا. لو تركت لهم الأمر لقتلوه بغباء. سقطت رأسه على صدره في النهاية، معلنًا أنه فقد وعيه. صرخت فيهم أن كفى، وأشرت إليهم جميعًا بالخروج. اقتربت منه لأرفع وجهه إلي.. تنفس، أرجوك تنفّس، اثبت لي أنك ما زلت حيًا! لا تضعني في تلك التجربة حيث تموت بيدي! يتنفس بصعوبة فأتحسس جسده.. أضلاع مكسورة! أيها الأوغاد.. ابتعدت عنه قليلًا وأنا أخرج الهاتف من جيبي:

– أيوه.. بلغ مازن إن يحيى في مخزن المريوطية.

قلتها وأغلقت الخط. يظن مازن الأحمق أن أحد رجاله الأوفياء هو من أبلغه، لا يعرف أنني أنا من أردت ذلك.

يتجنبني الجميع منذ ما حدث. إلهام غاضبة لشجاري مع يحيى وبسنت كذلك. علي لم يخبرهن بشيء، أنا أعرف ذلك يقينًا. جاءت لتخبرني أن بسنت تنزف من جديد، وأنها ستأخذها إلى المستشفى. تكاثرت علي الهموم فجأة. أرجوكِ يا بسنت اصمدي، أتوسل إليكِ أن تحتفظي به.. هو حفيدي الأول، لربما سيكون الأخير إذا ما مت قبل أن أرى أحفادًا آخرين. لماذا لم أجبرهم على الزواج صغارًا؟ لماذا لم أفكر في ذلك من قبل؟ يحيى؟ رافض للأمر تمامًا، يرى الزواج والإنجاب مأساة لا يود أن تتكرر معه! أندهش كثيرًا من طريقة تفكيره. أنا وأمه عشنا حياة سعيدة. من مثله هم من خرجوا في أسر مفككة. يعلم الله أنني حاولت كثيرًا بلا جدوى، في النهاية مللت منه! مازن؟ هههههه قد يتمنى الموت ألف مرة قبل أن يحقق لي ذلك الحلم، هو يراني مسؤول عن تعاسته وأنا أراه أحمقًا! من يربط سعادته بامرأة؟ أي امرأة! هو مختل لابد من حبسه في مستشفى الأمراض العقلية، على أن يشوون مخه كل يوم بجلسات الكهرباء!! هشام؟ آه يا هشاام، آه يا صغيري.. يتمنى ولكنه أبدًا لن ينال الأمر. يظن أنه يحتفظ بسر، بينما أنا من يحافظ له عليه. قبل أن تصله نتيجة التحاليل وصلت لي. غصة في حلقي، شوكة إلهية زرعت في ظهري لتؤلمني وتدميني حتى يواريني

التراب! حاولت كثيرًا أن أجد له علاجًا ولكن بلا جدوى. أسمع كيف يتكلم الجميع عنه. تتحدث أمه وأخوته عن تعدد علاقاته فيقطر قلبي دمًا. ليت أيًا مما تقولونه صحيح. لذا فعليكِ يا بسنت أن تحافظي على حفيدي. قد تنجبي بعده، قد يتغير رأي يحيى ويتبدل حال مازن، لكن ما تحمليه الآن هو أقرب حلم لدي. أكاد أمسكه بين يدي. أرجوكِ لا تفلتيه أبدًا.

بسنت ليست بخير. الطبيب أخبر إلهام أنها بحاجة للراحة التامة والابتعاد عن أي ضغوط. حسنًا سأفعل، سأبعد أي مشاكل عن البيت. هاتفت الطبيب لأطمئن على يحيى، يأكلني قلقي عليه هو الآخر. أخبرني الطبيب أنه لم يفق بعد. قررت أن وقت زيارته قد حان. تحركت للمستشفى، لأجد مازن وهشام مازالوا هناك. ذقون نامية وملابس مهملة. لم يترك أحدهما مكانه منذ أتيا به إلى هنا. مازن كالعادة بدا متحفزًا، إلا أنني قررت أن أخرسه: اللي مش هيسمع الكلام ويشرب اللبن زي ما بابا بيقول هيحصله زي عمو ده!

تراجع كلاهما وإن فهمت أن تراجع هشام وقتي. اعتذاره أشعرني بالقلق. هشام قرر قتلي! عرفت هذا منذ فتح فمه بالاعتذار. مثلت اللامبالاة، وأنا أتمزق من أجل أن يتركوني لأطمئن على يحيى قليلًا. لم أنفرد به لحظة، لم أنظر إليه بما يكفي! حتى لو نظرت إليه هذا غير كافٍ! أريد أن أضع يدي على رأسه، أمسك يديه وأقبل جبهته. ابني في غيبوبة، وجل ما أردته في تلك اللحظة أن أضمه إلي، ولم أستطع أن أفعلها!

لم أتحدث معهما عن قتلاهم في المخزن، سأوفر ذلك ليوم آخر. تخلصت من اثنين وتركت اثنين، على يقين أنهما سيقتلانهم، ربما يكونون رجالي، لكنني أبدًا لن أترك أحدًا رأى ابني مكسورًا على قيد الحياة. علي؟ علي قصة مختلفة، يعلم الله أن تمسكي به لغرض في نفس ابن يعقوب ليس أكثر.

في طريق العودة، كنت أفكر في الطريقة التي سيفكر بها هشام في الخلاص مني.. السم؟ لا، هذا سلاح الجبناء وأنا أنجبت رجالًا! كيف سيخترق الدفاعات حولي؟ هل ستأتيه الجرأة ليفعلها؟ بماذا سيشعر عندما يوجه مسدسه إلى صدري؟ بل هل سأتألم

أنا؟ يجب أن أحيا بأي طريقة، لن أترك ابني يحيا بعذاب الضمير من أجل غضبة مؤقتة.

أنا أعرف أبنائي جيدًا، لن يفكر في أي شيء حتى يفيق يحيى. يحيى سيمنعهم. سيتهمه مازن بالجبن وهو أجبنهم! قد يكون مازن عصبيًا مندفعًا، لكنه جبان فيما يتعلق بنا. لهفته علي وخوفه عندما أصبت كانت أكبر من لهفة إلهام وبسنت مجتمعة. يفكر كثيرًا أنه يكرهني، يتمنى كثيرًا الخلاص مني، لكنه أبدًا لن يفعلها. يحيى؟ سيقف لهم بالمرصاد، سيتحدث بالعقل مرة وبالسباب مرات، سيحاول أن يمنع هشام، أنا أعرف ذلك، سيحاول أن يمنع قدرًا آت ليسحقني. هشام.. قد يبدو أكثرهم لامبالاة، لكنه حقًا أقساهم بلا منازع. قد يحبني يحيى بجنون، وقد يكرهني مازن كالجحيم، لكن يظل هشام بهدوئه أكثرهم خطرًا وإيذاءً!

عدت إلى البيت في محاولة لأطمئن على بسنت، فاستقبلتني ببرود متجنبة تلاقي عينينا، طريقة عقابي المؤلمة المهينة ورثتها وراثة قبل أن تعي مداها وتأثيرها. اختليت بعلي لأعيد عليه ألا يخبر بسنت أو إلهام بشيء مما كان، فأكد أنه لم ولن يفعل.

عدت إلى غرفتي لأبدل ملابسي بسعادة. موقف بسنت، غضب مازن، كراهية هشام؛ كل هذا يصب في مصلحتي.. يا الله! لو مت الآن سأموت سعيدًا، وأنا أعرف أنني أنجبت أبناءً لا يهتمون لشيء في هذه الدنيا إلا لبعضهم البعض.

رن الهاتف ليخبرني الطبيب أن يحيى أفاق. اتسعت ابتسامتي أكثر، أرحت رأسي على الوسادة. على الرغم مني أطلقت ضحكة عالية. هذه فكرة جيدة. بسنت بحاجة للراحة الشديدة بأوامر الطبيب، وهذه الفكرة ستحقق لها ما تحتاجه!

هذه الفكرة ستقلب الطاولة على رأسك يا هشام، ستقلبها تمامًا!

الفصل الخامس والعشرون

هل ممكن حقًا أن نفعلها؟؟؟

* * *

كان يحيى للصمت أقرب، شاردًا، أراه معظم الوقت يفكر في اللاشيء. كلما فكرت أن أفاتحه فيما أنا بصدده، تخرسني نظراته، نظرة تبدو كأنه ينظر إلي، بينما أشعر معها حقًا أنني خفي ينظر من خلالي إلى شيء يسرح فيه! ما حدث له كان قاسيًا، وخصوصًا أنه هو يحيى، وأن من فعل به ذلك هو أبي.

مضت عشرة أيام وهو يتحسن. أخبرنا الطبيب أنه سيبقى على كرسي متحرك بسبب إصابته، قد تتحسن حالته بعد العلاج الطبيعي. وقفت أمام المستشفى أرى مازن يدفع الكرسي وهو جالس عليه بوجوم. حسين.. لقد حان وقتك!! عدنا به إلى شقته كما طلب. سأبقي معه أو أبقي مازن أو نبقى جميعًا، لا أعرف حقًا، كل ما أعرفه أنه لا يجب أن يترك وحيدًا. حدّث صديقته ليخبرها بانتهاء علاقتهما، طلب من مازن إرسال هدية وبوكيه ورد مع كارت شكر واعتذار لها. حاولت أن تهاتفه لتفهم، بكت، توسلت؛ إلا أنه رفض رؤيتها. في النهاية خرجت لأخبرها أنه سيتزوج حسب رغبة أبي.. ثارت، سبته، وسبتني، وسبت أبي، وخرجت صافقة الباب خلفها.

أراح يحيى جسده في سريره، كان يرتشف عصيرًا أعده له مازن. قدرت أن الوقت مناسب فتنحنحت: يحيى.. أنا قررت إننا نقتل بابا!

توقف عن الشرب لحظة ووضع الكوب جانبًا. هل أخطأت؟ الحقيقة أن الجملة كانت لتبدو أوقع لو قلت نقتل حسين.. نقتل بابا كانت قاسية!

– وانت يا مازن؟ موافق؟

هز مازن رأسه إيجابًا بدون تردد : أنا مش موافق.. مش هعمل كده.. انتم هتساعدوني في حاجة تانية، حاجة أنا قررتها من ساعة ما فتحت عيني ولقيتني مرمي في المستشفى.. أنا هقتله وهو حي.

قالها بهدوء غلب على نبرته غل، يحاول أن يدفنه فيصعد رغمًا عنه ليسيطر على كلماته. تساءلت عما هو بصدده، فأخبرني ضاحكًا أنه سيحيله إلى معاش مبكر!

- زي ما عجزني هعجزه! هاخد منه كل حاجة على حياة عينيه، وأخليه يتفرج عليا بعد ما بقى في إيدي كل حاجة وهو بقى ولا حاجة.. هحرق قلبه على ابن بسنت اللي هو مستنيه!

- بسنت متعرفش حاجة.. دي كل دقيقة بتسأل عليك.

قالها مازن بتوتر، فتراخى تصميم يحيى وشرد : اللي في بطنها لازم ينزل.. بعد اللي هعمله فيا علي، لو عاش عمره ما هيسامحني!

هززت رأسي بقوة: لا لا لا لا! ده جنان يا يحيى! أنا مش هسمح بده! لا.. بسنت وابنها بره الحسبة دي!

نظر إلي بدهشة جعلتني أنتبه لرد فعلي، الذي بدا حتمًا مبالغًا فيه. لن أسمح بذلك أبدًا، أنا أنتظر هذا الجنين أكثر من علي، من أبي وأمي، من بسنت نفسها! وجدت مازن يتنحنح: الجنين مش مستقر.. بسنت نزفت يوم ما وقعتها، النزيف بيقل بس لسه موجود.. الدكتور بيقول ده خطر!

أسقط في يدي، لأجد نفسي أسقط على الكرسي بلا قدرة على الكلام. احتشدت في عيني دموع حاولت إيقافها بلا جدوى. فزع مازن ويحيى وكلاهما يحاول أن يفهم ماذا هنالك، غير عالمين أنني أفقد ابن منتظر! هذا أملي الوحيد. من بين دموعي تمالكت نفسي وأنا أنظر ليحيى: اللي انت عايزه أنا معاك فيه، بعيد عن بسنت وابنها.

هز رأسه موافقًا وهو يتأملني فاحصًا، لن تدري يومًا ما أمر به يا يحيى، أو لربما تدري إذا ما بقيت عاجزًا!

– أنا شايف اللي بتفكروا فيه غلط.

قالها مازن : حسين مش سهل، مش هيتخلى عن اللي معاه بسهولة.. لو شم خبر ممكن يقتلنا!

ثم فرك يده بعصبية : أنا شايف إنه يموت أسهل وأريح.. رصاصة وبعدها كل حاجة تبقى معانا.

أراح يحيى رأسه للخلف: هيعرف ومش هيقدر يعمل حاجة.

قالها يحيى بتصميم : كلمه يا هشام وقول له إني هزوره بعد بكره، وقتها أنا اللي هقول له.

نظرت إليه للحظة : انت مجنون يا يحيى؟ هتروح تقول له إنك هتسحب السجادة من تحت رجله؟ في بيته؟

ابتسم بثقة: أنا مرتب أموري من قبل ما أخرج من المستشفى، وعندي اللي هعتمد عليهم.. وهو مش هيقدر يعمل حاجة في البيت، وإن حاول هيكتشف إن كل الرجالة اللي بيحموه خلاص، بقيت أنا بالفعل ولي نعمتهم.

ظللت صامتًا راغبًا عن الكلام في الهاتف. أشار إلي بغضب فهاتفته. أرجوك يا رب لا تجعله يجيب! من قال إن من مثلي تجاب دعواتهم؟ أجاب بعد الرنة الثالثة، فأخبرته أن يحيى سيزوره بعد غد كما قال. صمت قليلًا قبل أن يوافق على السابعة مساءً!

في اليوم المحدد وصلنا في موعدنا. كنت أسبقهما، بينما مازن يدفع كرسي يحيى. شهقت أمي بقوة :إيه اللي حصل؟

قالتها بصوت مخنوق. ابتسم يحيى ممسكًا بيدها، طابعًا عليها قبلة : عادي، أو العادي بتاعنا.. دي حياتنا، إيه الجديد يعني؟

أشار إلى مكتب أبي وأخبرها أنه سيعود إليها بعد مجلس الحرب! قالها ضاحكًا فتعجبت منه. يبدو منتعشًا بشكل غير طبيعي. الحقيقة أن كل تصرفاته باتت غير طبيعية! حتى اقتراحه بعزل أبي، قد يكون أقرب للمنطق، لكنه أبعد ما يكون عن يحيى الذي أعرف! يحيى مهما أساء له أبي، كان يدين له بالولاء، كان يذكرني بالكلاب التي إذا ما حنيت عليها مرة ثم مزقتها تمزيقًا، ما آذتك ابدا! أما أن يفكر في عزله؟ يفكر في إجهاض بسنت ليؤذيه؟ حسنًا، هذا الاقتراح لا ليؤذي أبي، هو فقط منذ البداية يود التخلص من هذا الجنين.

استقبلنا أبي ببرود مصطنع. لم تفتني نظرته إلى كرسي يحيى، كانت نظرة بلا معالم، كأنه كاميرا تسجل مشهدًا، لا تدري معها هل هو حزين، يشعر بالندم، أو أنه شامت! جلس خلف المكتب، بينما كاد يحيى أن يبدأ بالكلام، ليشير أبي إليه أن يصمت : عندي كلمتين لازم تسمعوهم الأول، وبعدها أبقى أسمع منكم.

قالها وهو يعبث في فنجان القهوة أمامه : أنا قررت إني هسيبلكم كل حاجة.. أنا كبرت وحاسس إن ده الوقت عشان أرتاح.. معاكم وقت لغاية ما بسنت تولد عشان تشتغلوا معايا واتطمن إنكم هتقدروا تقفوا على رجليكم، وبعدها هتفرغ إني أقضي الأيام اللي باقيالي مع حفيدي.

أسقط في يدي! ما جئنا لنقتله به وجدناه يعرضه علينا!! كان وجه يحيى أصبح كتلة دم يغلي غيظًا..

– هما ممكن يقفوا على رجليهم، لكن أنا دي حاجة مش مضمونة!!!

قالها محاولًا استفزازه، إلا أن أبي تجاهل ما يقول، متسائلًا عن رأينا. هززت رأسي بلا رد، في حين تلعثم مازن بكلمات لم أفهم منها حرفًا. ظل يحيى صامتًا ولم يجب. أشار إلي أبي أن أسأله، فأجاب أنه موافق، على أن يتولى أبي حماية علي وابن

بسنت!! كنت أعرف أنه يقولها في محاولة أخرى لاستفزاز أبي، الذي أكد أنه سيقوم بالدور..

– متقلقش عليهم يا يحيى!

سحب يحيى الكرسي للخلف، موجهًا إياه للخروج. على الرغم مني ابتسمت، وقد راقني ما فعل، رد الاستفزاز باستفزاز بسرعة أعجبتني اللعبه ، وإن سقطت في مرماي!

خرجت خلف يحيى لأجد بسنت تقف أمامه، وصدرها يعلو ويهبط بذهول :

وحشتيني يا بنت..

قالها يحيى مشاغبًا، محاولًا أن يتناسى ما حدث بالداخل. أشارت إلى الكرسي وهي تهمس: بابا؟

التمعت الدموع في عينيها، فأطلق يحيى ضحكة عالية جاذبًا إياها لتقترب منه : انتي عبيطة؟ إيه اللي خلاكي تتخيلي ده؟ بذمتك انتي ممكن تشكي واحد في المية في ده؟ يا هبلة!

هزت رأسها وهي تنقل نظرها بينه وبيني أنا ومازن : أومال؟؟

قالتها وهي تركع أرضًا لتصير قريبة منه. تحسس خصلات شعرها برفق: ده حوار طويل، هبقى أحكيلك عليه.. أنا لازم أمشي دلوقتي.

– استنا يا يحيى أنا عايزاك.

جاءت من أمي، فأشار لها أنه سيهاتفها، وأنه مضطر للذهاب. في طريق الخروج لاقينا علي، وقف يتأملنا للحظات..

– حمدلله على سلامتك يا يحيى!

– الله يسلمك يا حبيبي!

قالها يحيى بابتسامة عريضة. اتجهنا إلى سيارتي التي ما إن ركبها، حتى اكفهرّ وجهه وأطلق سبة بذيئة. التفت إلي ليقول بتصميم: يوم ما بسنت تولد تسلموني علي!!!

الفصل السادس والعشرون

تلك اللحظة التي قد تفقأ عينيك فيها تكذيبًا لحقيقة تراها، لكنك غير راغب في أن تصدقها.. أنا أمر بها الآن!!

* * *

– يوم ما جبت الشقة دي فهمتكم إني عايزها عشان أعيش بحرية ويبقى عندي خصوصية، أي جزئية في حرية وخصوصية مش قادرين تفهموها؟ دي مبقتش شقة، دي بقت أتوبيس!

دفعت الكرسي الجالس عليه للخلف؛ لكي أتيح لنفسي مساحة للدخول. أعرف يقينًا أنه ليس غاضبًا من الزيارة قدر خوفه من الكلام معي.

– هاه؟ تشربي إيه؟

جلست على تلك الكنبة واضعة حقيبة يدي بجواري..

– تعالى يا يحيى مش عايزة أشرب حاجة.. أنا عايزة أتكلم معاك.

قلتها بتلك النبرة التي يفهمها جيدًا. اقترب مرغمًا ليتوقف بالكرسي أمامي مواجهًا إياي. أغمضت عيني للحظة، مهيئة نفسي لما سأقول..

– يحيى.. أبوك اللي عمل كده؟

انفجر ضاحكًا بصوت عالٍ، ضاربًا كفًا بكف، ليوكد أن ما أقوله هو أقوى نكتة قد يسمعها في يوم من الأيام، إلا أنه لا يدري أن كل ما يفعله لم يلق لدي أي أرض خصبة لتطرح تصديقًا! بغض النظر عن أن أداءه مفتعل، تبقى الحقيقة التي حتمًا ستغلب أي تمثيل يحاوله، حقيقة أنه ابني! أنا حملتك في أحشائي، أرضعتك ثديي، بدلت ملابسك، وعلمتك أول خطوة وأول كلمة؛ لتكبر يا بني حتى لتصل لألف عام، سأظل أعرفك من نبرة صوتك، من نظرة عينيك..

– يحيى!

قلتها بحزم : قوللي الحقيقة من فضلك!

دعك عينيه بقوة : الحقيقة؟ ماما انتي مصدقة نفسك؟

هز رأسه بقوة نفيًا!

– اللي حصل لي ده متوقع.. اتربيت مش هسأل نفسي ليه ولا ازاي.. السؤال الصح امتى؟ متوقعه طول الوقت! ومش أنا لوحدي، وانتي عارفة ده كويس ومتعايشة معاه، إيه اللي جد؟

– اللي جد الخناقة اللي حصلت!

قلتها وأنا أشعر أن صوتي يعلو. زفر بقوة : وقبلها إيه اللي حصل؟ بابا خد رصاصة في صدره! اللي عمل كده معاه شاف إنه ده الوقت اللي يخلص مننا.. توقيته معايا بس هو اللي عمل اللبس ده.. ماما، من فضلك بطلي الأفكار دي.. انتي عارفة كويس إنك مادام فكرتي كده بسنت هتفكر كده هي كمان.. أرجوكي حاولي تخليها تطمن، مش لازم أي حاجة تأثر عليها.

زممت شفتي غضبًا على الرغم مني. أسوأ شعور في الدنيا أن يكذب عليك ابنك! تنهدت بقوة وأنا أرمي بكارتي الأخير لأحثّه على الكلام: بصلي يا يحيى، بص في عينيا وقوللي إن مش أبوك اللي عمل كده!

ظل ينظر إلي وعلى وجهه ابتسامة ساخرة..

– بصيلي انتي يا ماما وقولي لي انك مصدقة ده.. ولا أقولك..

قالها متراجعًا بكرسيه للخلف، مشيرًا إلى مرآة ضخمة خلفه..

– قومي بصي في المراية دي، وقولي الكلمتين دول بصوت عالي، وشوفي هتصدقيهم ولا لأ!

أمسكت حقيبة يدي بعصبية، وأنا أنهض مؤهلة نفسي للخروج..

– أنا هعرف الحقيقة يا يحيى! وساعتها مش هغفرلك إنك مصارحتنيش!

– إيه يا ماما الدراما دي؟ من غير التهديد اللي ملوش أي لازمة، غير إنه يعصبني، فكري بالعقل.. لو هو اللي عمل كده، إيه اللي هيخليني أداري؟ هحميه ليه؟ والنبي يا ماما يا ريت كلكم تنسوا عنوان الشقة هنا، ويا ريت تاخدي بالك من بسنت.

قالها وتركني ليتجه إلى ممر لابد أنه يؤدي إلى غرف النوم. سمعت باب يصفق فاستشطت غضبًا. خرجت لا أنوي على شيء، لأعود إلى المنزل وأنا رأسي يدور. أجهز الغداء، أطعم بسنت، أتأمل علي، وأتجاهل حسين؛ ثم أصعد إلى غرفتي لأختلي بنفسي. أشعلت سيجارة في البلكونة، ورحت أتنفس النيكوتين الحبيب بهدوء ممتع. سيصل بي إلى سرطان الرئة في يوم من الأيام. خوفي من المرض هو ما جعلني أتوقف عن الشراهة، لكنني لم أتخل عن التدخين يومًا. أنا لا أصدق ما يقوله يحيى، وإن بدا منطقيًا. ما الذي يدفعه للدفاع عن حسين لو أنه هو حقًا من تسبب في إيذائه؟ يحيى مخلص، ربما أكثر من اللازم، تبعيته لحسين تكاد تدخل في حيز التقديس! لكن هذا حتمًا ليس سببًا للدفاع عنه لو أنه تسبب في عجزه. رأسي يدور بشدة. أطفأت السيجارة ودخلت إلى غرفتي. طالعتني المرآة الضخمة أمامي، اقتربت منها وأنا أشعر برهبة غريبة، توقفت أمامها لأفتح فمي: حسين هو اللي.....

ماتت الكلمات مختنقة قبل أن تصل إلى شفتي. شعرت بفزع وأنا أشعر أنني قد أدخل في تلك الدوامة. قد تبدو الفكرة منطقية، إلا أنني حتمًا أضعف من أن أنطق بها. شعرت بدموع تجري على وجهي. الحقيقة أنني أبكي كثيرًا. لربما ظن من يعرفني أنني لا أبكي أبدًا، لكنني دائمًا ما أبكي. في أقسى لحظات غضبي وخوفي أدفن نفسي في صدر حسين وأبكي حتى أنتهي. لم يسألني يومًا سبب البكاء، ولم أكن لأجيب. حضنه هو المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالراحة والأمان، لأخلع قناعي عن العالم وأصير أنثى. اليوم، بعد أكثر من اربعين عامًا معه، أبكي وحيدة. شعور

غريب أن تصبح فجأة بلا مأوى. مسحت دموعي إثر شعوري باقترابه من الغرفة. بدل ملابسه بصمت. شعرت بجفاء شديد يداخلني تجاهه، لو أنك من آذيته يا حسين!!

– إلهام.. أنا عايزك.

كدت أخرج من الغرفة عندما نطقها، فتوقفت لأعود إليه بوجه بارد: نعم؟

يخلع ساعته برفق..

– عايزه إيه؟ إيه جواكي؟ قوليلي.

لا أعرف حقًا فيما كنت أفكر. لحظيًا فقدت القدرة على السيطرة على نفسي، حتى أنني حقًا لا أدري ماذا حدث. لقد صفعته! سمعت صوت الصفعة وأنا لا أدري أنني من وجهتها إليه! استقر كفي على وجهه دون أن أشعر! راح صدري يعلو ويهبط، وأنا أشعر بأنني سأفقد أعصابي.

– لو اتأكدت يا حسين إن انت اللي أذيت يحيى! لو اتأكدت إنك كنت سبب! لو اتأكدت إنك حتى رفعت إيدك عنه للحظة، واللي حصل له ده بسبب إنك اتخليت عنه؛ أنا هقتلك!

راح يتحسس وجهه برفق..

– يعني انتي لسه متأكدتيش؟ أومال القلم ده إيه سببه؟

شعرت بالغضب يشعل الدماء نارًا تجري في عروقي..

– بطل أسلوبك المستفز ده!

زفر بقوة وهو يصفف شعره بيديه للخلف..

– أعتقد بعد اللي حصل دلوقتي، إننا تخطينا مرحلة الاستفزاز يا إلهام!

قالها ووجدته فجأة يمسك بيدي ليجذبني بقوة آلمتني، لأقترب منه..

– أنا ممكن أتقبل إنك تتهميني اتهام زي ده! ممكن أتقبل القلم..

قالها ضاغطًا على يدي بقوة أكثر..

– ممكن أتقبل تهديدك الأهبل، وأعدي كل ده كأنه محصلش.. لكن اللي مش هقدر أتقبله في يوم يا إلهام إنك تدفنيني بالحياة! تحطيني على الرف كأني مش موجود! أنا هنا عشانك يا إلهام! عشان متخافيش في يوم من حاجة.. لو يوم خوفتي وعيطتي يبقى أنا مليش لازمة في الدنيا!

وجدت نفسي ملقاة في حضنه أبكي بهستيريا، بينما هو يربت على كتفي بهدوء معتاد..

– أنا خايفة يا حسين.. خايفة تكون أذيته! خايفة تجبرني أقتلك!

ضحك حتى دمعت عيناه، وضمني إليه أكثر..

– انتي سألتي يحيى؟

قالها هامسًا. هززت رأسي إيجابًا وأنا أشعر بصداع قاتل..

– قاللي لا!

– يبقى صدقيه.

أمسك بكتفي ليبعدني عنه قليلًا، مواجهًا وجهي بوجهه:

– إلهام.. أرجوكي، أنا مش عايز حاجة من الدنيا غير ابن بسنت.. اللي بعمله دلوقتي إني بحاول أصفي الدنيا حواليا وحوالين الولاد عشان عايز أتفرغ لحفيدي.. مش هبقى فاضي ولا حد هيبقى فاضي.. المسؤولية كلها عليكي.. لازم تاخدي بالك منها.

أدهشني أن تكون كلمات يحيى ككلمات حسين، أشعرني هذا للحظة بأنني كنت مخطئة. كلاهما يسير في نفس الاتجاه، لابد أنني حمقاء!

– إلهام.. انتي مش خايفة مني بعد اللي عملتيه؟

قالها هامسًا وهو يعبث بخصلات شعري..

– لأ! أنا مبخافش منك يا حسين!

قلتها كاذبة وأنا أغمض عيني بقوة، متوقعة شفرة حادة تذبحني، إلا أنني وجدته يهمس: وده اللي مخليني من يوم ما شوفتك مشوفتش حد غيرك!

قالها وطبع قبلة على رأسي أزالت عني التفكير السيئ وهموم أيام مضت. شعرت أنني بحاجة للنوم، أمامي مهمة لابد من إنجازها، لابد أن أحافظ على جنين بسنت، يبدو أنها الطريقة الوحيدة للإبقاء على هذه الأسرة، على هذه العائلة!

الفصل السابع والعشرون

تعريف السعادة: أن تعيش بلا قلق مما مضى، بلا خوف مما يأتي، بلا تخطيط لما يجرى حولك الآن..

* * *

هل من الممكن أن أصير سعيدة؟ هل أحيا بلا قلق؟ هل أنظر إلى الغد بابتسامة؟ بدا كل هذا أمامي حاضرًا، صرت أستنشق الراحة في كل نفس. هدأت الأوضاع حولي. الجميع يلاحقونني باهتمام. تهتم أمي بطعامي، أبي بحركتي، هشام يصحبني إلى الطبيب، مازن يؤثث بنفسه غرفة الطفل، حتى يحيى صار يأتي إلى المنزل في كل مرة محملًا بهدايا تناسب المولود، صحيح أنه يكلم أبي باقتضاب، صحيح أنه لم يتخط قط حاجز الحديقة، صحيح أنه بعده على الكرسي المتحرك؛ إلا أنني كنت سعيدة بحق.

ما نغص علي تلك السعادة مازن، أخبرني همسًا أن الطبيب أخبر يحيى أن العلاج الطبيعي لن يجدي، يمكنه أن يجرب عملية جراحية في ألمانيا. آلمني ما قاله مازن بشدة، وأنا أتخيل يحيى محبوسًا ما تبقى له من عمره في ذلك الكرسي. للحظة ظننت أن أبي هو من فعلها، إلا أن يحيى أنكر، هشام أنكر، مازن أنكر، وعلي أنكر! صار علي أن أصدق إنكارهم.

الأمر الآخر هو علي نفسه. كنت أشعر بحاجز بُني بيني وبينه، لا أدري سببه، ربما لأنه لم يعد يشعر أنه رب أسرة، ربما لأنه لم يشعر بالأمر يومًا! كنت ألاحظ نظراته عندما يقفز هشام ليتحسس بطني، مستشعرًا ركلات الجنين. على الرغم من سعادتي بأن هشام أصبح يهتم بنا، وأن وجوده كان ضروريًا في غياب يحيى، إلا أنني كنت أنهره ليفسح مكانًا لعلي. يضحك هشام واضعًا يده كلها على بطني، وكأنه يستفز علي، فيبتسم علي ابتسامة صفراء. أعرف أن هشام لا يمزح، وهو يتعمد استفزاز علي! أعرف أن علي لا يبتسم، هو حقًا كاره لما يراه!

ربما أتى الحاجز مني، عندما أحببت علي، رأيت فيه اختلافًا عما تربيت عليه، كان كثيرًا ما يرتبك، يتكلم بطلاقة وعفوية، كان وجهه يعكس ما يفكر فيه. علي كان كتابًا مفتوحًا انغلق فجأة عندما صار منا! زاد صمتًا، حتى وجهه ونظراته لم تعد تعكس ما يفكر فيه. لا أحب حقًا أن أراه هكذا. يؤسفني أن أقول إنه لم يصير مثل هشام أو مازن أو حتى يحيى، لقد صار نسخة من أبي! لم يرضني الأمر قط. كنت أراهم يتفاهمون بالنظرات. يهمس أبي إليه. لم يعد يخبرني ما يجري. أعرف أن مشاكل أبي ويحيى كانت بسببه، وهو أمر لم يسعدني. جل ما تمنيته أن يتقبله أبي زوجًا لي، لا أن يجعله نسخة منه.

يعود من الخارج يقبل رأسي بآلية. أشم عليه رائحة الدم، رائحة البارود، رائحة الموت!! يغتسل، إلا أن ذلك لم يغير تلك الرائحة لحظة. أحاول أن أتجاهل كل هذا وأنام في حضنه، إلا أنني أشعر بجسده باردًا كالثلج. أغمض عيني بقوة وأترك له جسدي، بينما قلبي ينبض بحب علي القديم! أشم رائحته في أنفي، أشعر بلمساته الحانية، وأسمع همسه في أذني. عجبت لأنني كنت أشعر كأنني أخونه! أخون زوجي بتفكيري بمن كان في يوم من الأيام! إلى هذا الحد تغيرت يا علي؟ أستشعر نوعًا من الحب القديم يعود إلى قلبي، بينما أنا نائمة على صدره العاري، أطبع قبلة حانية هامسة: أنا بحبك أوي..

لم يجب! مرت لحظات صمت فأعدت الجملة بصوت أعلى، إلا أنه لم يجب أيضًا! كان يعبث في شعري بهدوء، مما أكد لي أنه سمع، ولكنه سارح في شيء آخر!! حركت وجهي إلى أعلى لأواجهه، لأجده ينظر إلي بثبات أخافني. توترت وأعدت الجملة، لأجده يبتسم بطرف فمه ولم يعلّق! صفعة! صفعة غير متوقعة جعلتني أفقد توازني! صفعة في شكل صمت وتجاهل، بينما أنا عارية في حضنه! لكم تغيرت يا علي! شعرت بدوار شديد، بينما تسارعت دقات قلبي. وجدته يجيب!!

– بحبك أوي يا علي..؟ لا يا بسنت، يمكن تكوني بتحبيني، بس مش أوي!

وجدته يمسك بذقني ليرفع وجهي لأواجهه، بينما أنا عاجزة عن إبداء أي ردة فعل.

– عارفة يعني إيه تحبيني أوي؟ يعني تحطيني في كفة وتحطي حياتك كلها في كفة، وكفتي أنا اللي ترجح! أنا عملت كده يا بسنت عشان بحبك أوي، وعشان بحبك أوي مش عايزك تضحكي عليا ولا على نفسك! وقت ما تحسي إن أنا عندك بالدنيا وما فيها، وقتها بس هقبل أسمع منك الجملة دي.

قالها وطبع قبلة على جبهتي، وضمني مرة أخرى إليه!!

هل يعاتبني لأنني لم أهرب معه؟ هل سيطلب الانفصال بعد إنجابي؟ الحقيقة أنني كنت على أتم الاستعداد لذلك. كانت أيام الحمل تمضي متعبة، حتى وصلت لآخر أيام شهري الثامن، فأصبحتْ قاتلة! كنت دائمة الإرهاق والتعب والغثيان والقيء، وإن كنت أتخيل أنها أعراض أول الحمل وليس آخره! كنت أشعر بلمسات علي القديمة تظهر كلما قدم لي الفوار المقوي صباحًا ومساءً، أشعر بيده فأخشى أن أعود لأحلم بعلي القديم فيصدمني مرة أخرى.

في تلك الليلة، كنت أشعر بآلام مضاعفة. عرق غزير وجسد مرتجف استحالت سيطرتي عليه. صرخت ألمًا إثر انقباض قاسٍ داهمني. رحت أمسك بالوساده بألم، وأنا أحاول أن أنهض، فأتى انقباض آخر ليقضي على هذا الحلم..

– ماماااااااااااااااااا.....

وجدتها تهرع إلي: في إيه؟؟ انتي بتولدي؟! متخافيش..

قالتها وتركتني وخرجت! سمعت كثيرًا عن آلام الولادة، إلا أنني لم أتخيلها يومًا بهذا السوء! أبي وعلي بالخارج، لذا أنا وأمي بمفردنا. آآآآآآآآآآآآآآآآه أشعر بأنفاسي تهرب مني. يا إلهي انقذني، لا أريد أن أموت، أريد أن أحيا لأراه، لأضمه!

كم مر علي وقت وأنا هكذا؟ سنون، ربما قرون، قبل أن تعود أمي ومعها مسعفون يحملون محفة، حملوني عليها بينما أشعر حقًا أنني أحتضر!

وصلت إلى المستشفى، وكان ماء الجنين قد سال بالفعل. حملوني إلى غرفة العمليات. أرى أمي، أرى أبي، أرى علي.. متى أتوا؟ هل أحلم؟ يتسرب مني

وعيي، قبل أن يضع الطبيب يده ليلمسني. يا إلهي، دعني أضمه مرة واحدة فقط ثم اقبضني إليك!

فتحت عيني بإنهاك لأرى علي. انتفض ممسكًا بيدي، قبّل رأسي مرتجفًا. أمي هنا وهشام ومازن. أخبرتني أمي أنني كدت أموت حقًا في الولادة، وأن الطبيب أنقذني بمعجزة ما. لم أكن بكامل وعيي ..سألت عن المولود فأخبروني أنه صحيح معافًى. أبي أخذه إلى المنزل خوفًا من تركه في المستشفى!! شعرت بالرغبة في الصراخ والبكاء غضبًا، إلا أنني فقدت وعيي مرة أخرى.

عندما فتحت عيني مرة أخرى، لم أجد سوى علي فقط. صممت على العودة لرؤية ابني! شعرت بالكراهية تملؤني تجاه أبي، الذي لم يفكر في زيارتي وبقي في المنزل، آخذًا رضيعي معه! كان الوجوم سيد الموقف، فأثرت الصمت. سألت علي عما إذا كان اختار اسمًا للمولود. كنت قد رفضت كل الأسماء المقترحة من الجميع، لأجعل الاختيار من نصيب علي. أخبرني هامسًا: حسين.

شعرت بالدماء تصعد إلى رأسي. نظرت إليه بغل نظرة لو كانت تقتل لتحول إلى غبار! عدت إلى المنزل، وقد صممت على أن أرحل أنا وعلي وابني. سأختارك يا علي وأترك دنياي!

هرعت لرؤية رضيعي، آخذة إياه من يد أمي. سألت عن أبي بتحفز، لتجيب بهدوء:

– تعبان شوية ونايم.

جالسة لم تنهض وباكية! ضممت حسين إلى صدري وأنا أسأل: هو في إيه؟

لتنفجر باكية! ارتجفت فهرع علي ليأخذ حسين من يدي، متحاشيًا النظر إلى وجهي..

– في إيه؟؟؟

قلتها مرة أخرى، لتجيبني أمي بين دموعها: يحيى اتدبح في شقته..

الفصل الثامن والعشرون

من فعلها؟!

* * *

هرعت خلف مازن إلى الفيلا خوفًا من تهوره! كنت خائفًا مما هو آتٍ بشكل لم يحدث لي من قبل. فور علمي بما حدث ليحيى، عرفت أن القادم أسوأ. رأيته يترجل من سيارته مندفعًا إلى الداخل، فقفزت من سيارتي عدوًا خلفه. ناديته، إلا أنه لم يجب! اقتحم غرفة المكتب، حيث رأيت أبي ينظر إليه تاركًا هاتفه، وعلى وجهه ابتسامة من شيء ما لابد أنه أسعده كثيرًا!

وقف مازن أمامه يتطاير الشرر من عينيه..

– يحيى اتدبح في شقته!

حمدت الله كثيرًا أنه لم يوجه له أي اتهام واضح. انقلبت سحنة أبي من الضحك إلى اللاشيء! وجه القناع الذي يرتديه ارتداه فجأة، ليعزل عنا ما يدور بداخله! كنت خائفًا أن يحتد عليه مازن أو يتشاجر. أعرف ما يدور في رأس مازن، لأنه هو نفسه ما دار بذهني. اقترب ميعاد وضع بسنت، واقترب معه اعتزال أبي العمل وتسليم كل شيء. لابد أنه قرر أن وقت التخلص من يحيى قد حان! لابد أنه قرر أن وقت التخلص منا حان!

– فين جثته؟

قالها أبي بصوت ثابت.

– مماتش! الرجالة راحوا بيه على المستشفى وهو في العمليات!

نظر أبي له طويلًا، ثم حرك عينيه لينظر إلي. سباب! سباب قذر خرج من فمه، قبل أن ينهض خارجًا، ضاربًا مازن بكتفه في طريقه للخروج؛ مما جعلني أفسح له الطريق. توقف ليستدير إلينا: مستنيين عزومة؟

أشرت إليه أن سنتبعك. تلكأت قليلًا لأمسك بمازن، هامسًا بأذنه أن يخرس حتى نرى ماذا سنفعل. آخر ما أريده الآن شجار واضح! تحرك كل منا إلى سيارته، وقبل أن أركب، أتاني صوت أبي أن نركب في سيارته! أشرت لمازن أن يذهب وتبعته. جلسنا واجمين، بينما يخفي أبي وجهه بنظارة شمسية، لو لم توجد لما صنعت فارقًا! تمنيت أن أعرف في هذه اللحظة فيما يفكر، هل هو سعيد؟ كيف طاوعه قلبه لفعلها؟ ذبح ابنه في وضح النهار ولم يبالِ؟ لو قتله برصاصة استقرت في رأسه لكان الأمر أسهل.. الذبح قذر! الذبح بشع! أنا حقًا لا أبالي لموت الآخرين، ويمكنني قتل مائة رجل دون أن يهتز لي جفن، لكن تبقى السكين عقدتي الأبدية، أراها طريقة بربرية همجية، تحمل حقدًا وغلًا غير طبيعي. إلى هذا الحد يا حسين هان عليك يحيى؟ قطع حبل أفكاري وصولنا إلى المستشفى، التي تحولت إلى منطقة محظورة من رجالنا الذين تناثروا فيها وحولها. استقبلنا دكتور جميل مدير المستشفى، ليخبرنا أن يحيى بخير. تنفست الصعداء، بينما صرخ أبي فيه يسأله أين هو؟

– في أوضة العمليات.

قالها مرتجفًا، لينظر له أبي نظرة نارية..

– مش عايز كدب.. وتبلغني وضعه أول بأول!

إلى هذا الحد لم يستطع السيطرة على مشاعره؟ مجرد معرفته باحتمالية نجاة يحيى غير مقبول؟ جلسنا صامتين بانتظار أي أخبار. طال وجود يحيى بغرفة العمليات، ليمتد إلى خمس ساعات. لم يعني شيئًا إلا أنه ينجو ! لو أن الأمر انتهى لفني منذ ساعات. جال في ذهني خاطر مرعب، أن دكتور جميل قد يتسبب في قتل يحيى بأوامر أبي! نظرت إليه لأجده ينهض، متوجهًا إلى دورة مياه قريبة. تبعته حذرًا من أن يراني؛ لأسترق النظر والسمع على ما سيفعله! مر وقت وأنا أنتظر أي صوت

بلا جدوى. فجأة صوت ارتطام! دخلت حذرًا، لأجد أبي ساقطًا أرضًا على ركبتيه يجاهد من أجل الهواء!!

هل أتركه؟ بدا لي الأمر عادلًا وأنا أراه في هذا الوضع. توقفت أمامه للحظة، وقررت أن أقول شيئًا، أي شيء، كجملة أخيرة قبل موته، إلا أن الأمر بدا سينمائيًا بشكل سخيف! أشار إلي بصوت مبحوح:

– روح شوف أخوك.. متسيبوهوش من غير تأمين..

لابد أن علامات الاستفهام بدت على وجهي!

– يا ولاد الكلب يا أغبيا!! انتم مش رجالة! أنا مخلفتش غير راجل واحد وتلات نسوان! التأمين كان مسؤوليتك! يا ابن الكلب!

يشهق أكثر...

– أنا مش هرحمك لو جراله حاجة! كمان سايبينه بعد اللي حصل وجايينلي بربطة المعلم انت والـ**** التاني؟ مين عارف إدوله إيه في الإسعاف! مين عارف.. هيييه.. هيييهه..

أنفاس ثقيلة حاول معها أن ينهض، مستندًا على أحواض غسيل الوجه. وقف مرتجفًا:

– روح شوفه!

تحركت للخلف للحظة، قبل أن أراه يفقد توازنه ثانية، فهرعت ممسكًا به قبل أن يسقط! سندته بيدي، وباليد الأخرى رحت أفك أزرار القميص من أعلى وأغسل وجهه بالماء البارد. لم أعد أفهم شيئًا! لم يفعلها هو؟ أم فعلها ويشعر بالذنب؟ انتظمت أنفاسه، فوجدته يدفعني عنه بضيق ويغسل وجهه مرة أخرى، قبل أن يأمرني أن أصمت ولا أخبر أحدًا أي شيء عما حدث. هززت رأسي وأنا أراه يعدل

هندامه ويجفف وجهه، قبل أن يرفع رأسه ويخرج أمامي كأن شيئًا لم يحدث! ابتسمت على الرغم مني وأنا أتمنى أن أتعلم أن أكون مثله في يوم من الأيام!

عدنا ليسألني مازن بغضب: كنت فين؟

قالها وهو يشيح وجهه عن أبي الذي بدا غير مبالٍ!

- بسنت بتولد وبعتنالها عربية من المستشفى تجيبها، وبعتت علي ورجالة معاه يأمنوها هي وماما لغاية ما يوصلوا، ويحيى لسه خارج من العمليات على العناية.

يا الله يا واسع النعم! يحيى نجى وبسنت تنجب! وجدت أبي يهاتف أحدًا، لابد أنه أمي أو علي. هز رأسه أن نعم، ثم أشار إلينا بالبقاء بجوار يحيى، وأنه سيذهب ليرى بسنت. ما إن اختفى حتى اندفع مازن يسألني بغضب: كنت فين معاه؟ وإيه اللي أخرك كل ده؟ أنا بقيت واقف على أعصابي لوحدي، متوقع إنه يبعت حد يقتلني ويقتل يحيى!

أشرت إلى الحمام وأنا أدعك عيني بقوة. لم أجرؤ أن أخبره بشيء. فكرة أنه هو من تخلص من يحيى بعد أن كانت راسخة في رأسي، أصبحت ضبابية غير واضحة المعالم. رن هاتفي ففتحت الخط، لأجد علي يصرخ أن أقابله في الدور الثالث. أشرت إلى مازن فتحسس سلاحه قائلًا: خد بالك، لو حسين تِعبان فعلي ده ديله!

هرعت إلى الدور الثالث الذي لم يكن دور النساء والولادة. توترت لأن جزءًا كبيرًا منه كان فارغًا. رأيت علي يشير إلي أن آتي إليه وهو يتقافز، ذهبت إليه بتوجس، لأراه مرتجفًا يشير إلى غرفة وجدت فيها أبي راقدًا، بينما دكتور جميل ومعه بضعة أطباء يحاولون إنعاشه. كان مؤشر ضربات القلب غير متزن. شعرت بدوار داهمني عندما رأيته في ذلك الوضع. قد أكون أتمنى موته وخططت له، لكن انهياره أمامي بهذا الشكل! هذا أمر قاتل بالنسبة إلي!

كان علي يتحدث ويبكي، بينما أنا سارح في أبي. انتبهت إلى كلمة بسنت، فاستدرت إليه لأجده مرتجفًا يردد أنه يخسر كل شيء!

– في إيه؟!

قلتها متسائلًا..

– بسنت بتموت.. بسنت بتموت.. كل حاجة ضاعت.. كل حياتي ضاعت!

أمسكت به من رقبته بغل..

– بقى اسمع يلا.. إنزل بسرعة شوف بسنت وخليك جنبها هي وماما، واوعي تحكي تقلقهم بأي شكل أو تعيط قدامهم! استرجل وخليك واقف على رجلك قدامهم لغاية ما اليوم ده يخلص! واوعي تحكي لماما على يحيى!

– يحيى؟!

نظر إلي متسائلًا، ففهمت أنه حقًا لا يدري شيئًا! لقد هرع أبي إليه ليرى بسنت التي تنجب، وعندما عرف أنه يخسرها هي الأخرى، قرر أن يختفي عن الأنظار لينهار مجددًا، لولا تبعه علي ليعرف ماذا سيفعل لقُضي وحيدًا! لم يجد الفرصة ليخبره، وحتمًا هو لم يعرف بالأمر من قبل! أشرت له أنه لا شيء، وأعدت عليه أن يصمت. اندفع عائدًا إلى غرفة عمليات الولادة، بينما بقيت أتابع ما يحدث بالداخل. سيرك! كانوا يطوفون حوله كالنحل، فشعرت بشكل أو بآخر بالذنب. لماذا كنت واثقًا لهذا الحد أنه فعلها؟ قد يكون قاسيًا، لكنه حتمًا لن يقتل أحدنا، أم أنه يستطيع أن يفعلها؟ لا أعرف! لقد أصبحت مشتتًا!

انتظمت ضربات قلبه نسبيًا، فانفض السيرك من حوله، إلا من دكتور جميل. دخلت دون استئذان فلم يعلّق. تمنيت أن يعلق لألكمه، فأنا مازلت أحمل له أنه ترك يحيى ينزف في يدي لأن أبي أمره بذلك! أشار إلي بهدوء أن أخرج معه، فخرجت لأنه سينصحني بشيء ما حتمًا. تنهد للحظة كأنه يعد ما يقول، ثم بدأ بديباجة لابد منها:

هشام.. انت عارف أبوك بالنسبالي أعز أصدقائي وأكتر واحد ساعدني في حياتي، ولولاه مكنتش عمري همتلك المستشفى دي.. اللي هقولهولك ميخترقش سر المريض مع الطبيب، لإني أصلًا مش ماشي بالقسم، مش حافظه ولا بتعامل بيه! أبوك تعبان ومش من النهارده.. دي مش أول أزمة قلبية تجيله.. أنا طلبت منه من فترة إنه يسيب الشغل لإنه هو اللي بيسببله التوتر ده، وهو وعدني إنه هيسلمكم كل حاجة ويتفرغ للراحة، لكن واضح طبعًا إنه محصلش! أنا بكلمك لإنك المسؤول دلوقتي بعد الوضع اللي يحيى فيه.. حسين لو فضل كده هيموت!

كان الأمر حقيقيًا إذن! كان يسلمنا كل شيء بأوامر الطبيب!! في تلك اللحظة، تهاوت نظرية ذبح أبي ليحيى تمامًا! هززت رأسي للدكتور جميل أنه حسنًا، ليتنحنح طالبًا مني ألا أخبره أنه تحدث معي! ابتسمت على الرغم مني وأشرت إليه فذهب. حسنًا يا أبي، أنت بريء! أبي أكبر من أن يمثل أو يدعي مرضًا ليدفع عن نفسه تهمة ما! هذا الرجل يذهب إلى المقصلة مرفوع الرأس بابتسامة ساخرة! هاتفت أحد رجالنا ليأتي بأربعة آخرين؛ ليبقوا لحمايته حتى أرى يحيى وبسنت.

عدت لمازن فسألني ماذا هناك، فأخبرته أن بسنت في حالة حرجة، فتوتر!

– إيه اليوم ده؟

قالها وجلس بجواري يفرك يده بعصبية..

– بقولك إيه، احنا المرة دي لازم نتصرف مع أبوك!

لم أجب، ولم أخبره بشيء. كان رأسي يدور فيمن فعلها. لدينا الكثير من الأعداء، لكن رأسي رجّح ماهر الزين! لنرى.. يتشاجر أبي مع ماهر يوم العشاء، فيخرج ليصاب برصاصة في صدره. منذ ذلك اليوم والحرب دائرة لم تتوقف، لكني لم أتخيل أن تصل إلى قتل يحيى. في تلك المهنة نعرف جميعًا حدودنا. أيًا كان مدى العداء والحرب، لا نفكر في إيذاء الأبناء؛ لأن ذلك يعني حربًا لن تبقي ولن تذر!

ما زال مازن يتحدث، فأشرت إليه أنني سأذهب لرؤية بسنت. كانت أمي متوترة، وإن كانت متماسكة. الطفل بخير، وأخذوه إلى غرفة الأطفال. بسنت أصبحت بخير وخرجت، لكنها فاقدة الوعي! هرعت لأرى الطفل. هاتفت دكتور جميل أنني أريد سرير أطفال في غرفة بسنت لأن الطفل سيبقى معها. وافق لأنه يفهم أن الأمور لا تجري بشكل جيد معنا.

أفاق أبي في المساء، وصمم على العودة إلى الفيلا ومعه الطفل! راجعه دكتور جميل لأن حالته لم تستقر، فلم يهتم. عدت لمازن لأخبره أنني سأعود بالطفل مع أبي إلى الفيلا، فسب مؤكدًا أن "ده كل اللي يهمه!" لم أجب، فقط أشرت إليه أن أمي لا تعرف شيئًا عما جرى ليحيى، فهز رأسه بصمت.

كنت أرى على وجه علي الاعتراض، إلا أنني أخبرته أنه بعد ما حدث ليحيى، أصبح الجو حولنا خطرًا! هز رأسه بلا اقتناع.

قبل أن أرحل سألت أمي عما إذا كانوا قد اختاروا له اسمًا، فأشرت إلى علي الذي أجاب بآلية: حسين!

ابتسمت بسخرية ولم أعلق، وعدت إلى الفيلا مع أبي. كان على الرغم من حالته يرعى الطفل بنفسه! يجهز ببرونات اللبن، يبدل حفاضاته، يستيقظ من أجله طوال الليل! هذا الرجل دفن بداخله كل مشاعر الحب والاهتمام، لتخرج فجأة لهذا الرضيع! كنت مقيمًا في الفيلا وأعود إلى المستشفى حيث أطمئن على بسنت، التي أفاقت وعادت لفقدان الوعي، ويحيى الذي ما زال فاقد الوعي. كنت أرى علي بجوارها طوال الوقت. سمعته مرة يهمس باكيًا: سامحيني يا حبيبتي.. لولايا مكنتيش تعبتي..

– على الرغم من تقززي من فكرة الرجل الذي يلوم نفسه لآلام الحمل والوضع التي تمر بها زوجته؛ إلا أنني وللمرة الأولى في حياتي، شعرت باحترامي للمبدأ.

لم أنم لحظة في تلك الليلة، حتى سمعت صوت بكاء الطفل لا يهدأ، هرعت لأرى أبي فلم أجده. حملت الرضيع مرتجفًا من صغر حجمه، كنت أشعر أنني سأكسر شيئًا ثمينًا دون قصد! هدأ نسبيًا عندما حملته. بدلت حفاضته بشكل جعلني -وإن عشت حياتي أرغب في الأطفال- أرغب عنهم فجأة! ابتسمت بعدها عندما ضممته إلي، وجلست على الكرسي الهزاز لينام ثانية. يفتح عينيه ويغلقها بعدم فهم. تفوح منه رائحة بودرة التلك ولبن الأطفال. تثاءب وابتسم لي! للحظة شعرت أنني نسيت هموم الدنيا وما فيها. شعرت بيد أبي على كتفي فأجفلت. أشار ببرونة لبن الأطفال، فدسستها في فم الصغير دسًا! أمسك أبي يدي برفق: براحة.. كده يتخنق!

أبعدت يدي قليلًا، فشعرت به يرضعها بنهم. كنت سعيدًا وإن توترت من وجود أبي. رفعت رأسي إليه لأجده ينظر إلي بثبات. حاولت أن أخف الحدة بيني وبينه..

– إيه مش هتقوللي اتجوز عشان تخلف يا هشام؟

أراح رأسه إلى الخلف..

– لا!

نظرت إليه بدهشة وأنا أهدهد الصغير..

– ليه؟

– عشان انت مبتخلفش يا هشام!

تهاوت الأرض تحت قدمي وأنا أنظر إليه بذهول. نهض ليسحب الطفل من بين يدي، واضعًا إياه في سريره، وواضعًا البرونة على طاولة قريبة وخرج. هو يعرف! متى وكيف؟! من أيضًا يعرف؟ هرعت إلى غرفته لأجده جالسًا في البلكونة في صمت.

– طبعًا.. كنت مستني بالسر ده لغاية ما تكسرني بيه!

لم يجب. أغمض عينيه وهمس: انتم اللي كسرتوني! يحيى! يحيى اللي رافض لغاية ما سمعني كلام من الناس عمري ما تخيلت أسمعه! مازن؟ مازن اللي عايش وهم عمره ما هيفوق منه! وانت يا هشام...

فتح عينيه لأجدها مغرقة بالدموع..

- لو كنت أقدر أعمل حاجة يا ابني كنت عملتها.. زي ما انت لفيت العالم تلاقي علاج، أنا كمان لفيت.. وبسنت؟ وقعت في واحد ولا رضيت ولا هرضى عنه في يوم.. لو انت مكسور مرة، أنا مكسور ألف مرة!

لم أجب!

- اوعدني بس بحاجة.. الواد ده يمكن يكون مش من صلبنا، بس دمي.. لو جرالي حاجة يا هشام لازم تخليه مننا! لازم يتعلم إننا أهله!

هززت رأسي أنني سأفعل، وانزويت في غرفتي أرقًا حتى أضاءت الشمس الدنيا.

عادت أمي من المستشفى باكية! لقد أخبرها مازن بما كان ليحيى! وددت أن أكسر رأسه، إلا أنني وجدت الحل الأمثل هو الصمت. عدت لأخبرها همسًا بما حدث لأبي في المستشفى، فهرعت إليه. علي ما زال في المستشفى مع بسنت، وإن أتى مازن مع أمي. هاتفني علي أن بسنت أفاقت، وأنها قررت العودة إلى الفيلا، فلم أجد ردًا سوى: خلاص تعالوا!

أعرف العند الذي يجري في عروق هذه الأسرة! عادت بسنت متماسكة، لتخبرها أمي بما جرى ليحيى ففقدت وعيها! يا الله يا ولي الصابرين! مازن الكلب، أنت تستحق الإعدام في ميدان عام! لولاك لما عرف أحد شيئًا! حملها علي إلى غرفتهما. أشرت إلى أمي أنني بحاجة للنوم، فأشارت أنها أيضًا كذلك. مازن سيبقى مستيقظًا.. لابأس!

طرق علي باب غرفتي، ثم شَبَحَ مازن: بابا عايزنا في أوضة المكتب، أو بمعنى أصح، أنا اللي طلبت اجتماع!

قالها وتركني ألملم أفكاري. هرعت إلى أسفل، لأجد أبي وعلي ومازن. لابد أن أمي مع بسنت والطفل. بدأ مازن الكلام بأسلوب مستفز، ليرمي بالكلام عن من المستفيد مما حدث ليحيى! قطب أبي حاجبيه غضبًا، فأشرت لمازن أن ما يقوله غير صحيح، وأننا في حرب مع ماهر الزين! ضرب بيده على المكتب بغضب، وراح يكابر. أقلقني في تلك اللحظة انفعال أبي، وأن علي يشاهد فيلم العاشرة في بث مباشر، لا ينقصه سوى الفشار! كنت أحاول أن أنبه مازن لذلك، إلا أنه لم يهدأ، اضطررت لأن أناطحه الكلمة بكلمة؛ حتى لا يتشاجر مع أبي لتسوء حالته. توقفت إثر دخول بسنت بهدوء وجلوسها لتتابع هي الأخرى، إلا أن مازن لم يتوقف! قررت أن أشير إلى وجود بسنت فصمت! لحظة صمت طالت بضعة دقائق، قطعتها بسنت: خلاص؟ خلصتم؟

نهضت ببطء متجهة إلى أبي، في حين أن مازن في تلك اللحظة أشار صراحة أن أبي مسؤول عما حدث ليحيى! صفعة! صفعة سقطت على وجه مازن من بسنت!

- بقى اسمع! انت طول عمرك مصدر توتر وتشويش على البيت ده! دلوقتي مش مطلوب منك إلا إنك تخرس وتنفذ وبس!

احتقن وجه مازن بشدة، فأشرت إليه أن اصمت! توقفت بسنت أمام أبي..

- انت كبير العيلة دي، واللي حصل ليحيى مسؤوليتك انت! اللي عمل كده لازم تعرف هو مين وتجيبه!

- أنا مش مستني كلام منكم! ده ابني واللي عمل فيه كده أنا هقضي عليه واقطع اسمه من الدنيا!

قالها أبي بصوت فقد ثباته : لا! اللي عمل كده هتجيبهولي أنا! أنا اللي هتصرف معاه!

قالتها وتركتنا وانصرفت. كان علي يتابع في صمت ما يحدث، في حين اندفع مازن خارجًا. هرعت خلفه ممسكًا به في الحديقة ليصرخ: أقسم بالله لولا إنها قايمة من

موت كنت اديتها قلم سفها طقم سنانها! طبعًا لازم تدافع عن حسين وتنفي إنه هو اللي عمل كده!

أمسكت بذراعه : مش بابا اللي عمل كده..

رحت أحكي ما صار في المستشفى وكلام دكتور جميل وكل شيء. هز رأسه بضيق كأنه لا يريد أن أثبت براءة أبي : بس يرضيك كده؟ تمد إيدها عليا؟

انفجرت ضاحكًا للأسلوب الطفولي الذي يشكوها به! استفزته الضحكة للحظات، قبل أن يضحك هو الآخر. أشرت إليه أن يدخل، أمامنا ليلة طويلة لنخطط فيها كيف سننهي ماهر الزين!

الفصل التاسع والعشرون

ولكنه.. يحيى!!

* * *

أقف تحت وطأة المياه الساخنة، أنتظر منها أن تغسل تعبي وهمي، لكن هيهات. إرهاق شديد ألمّ بي منذ خروجي من المستشفى، كان علي أن أضعه جانبًا، بعدما سمعت ما صار ليحيى. أتأمل حوض الاستحمام. مياه تجري محملة بالدماء التي مازلت أنزفها. كادت الولادة تقتلني. كان خروجي الآن خطأ، الاستحمام بالماء شديد السخونة خطأ؛ لكن من قال إنني أهتم؟ مازن يتهم أبي، وإن كنت لا أصدق ذلك. قد يقسو عليه، لكنه أبدًا لن يقتله. أنا رأيت وجه أبي، دوامة حقيقية سقط فيها، وإن يحاول التوازن. أنا لا أعرف الكثير عن عملهم، لكن أن تتطور الأمور إلى هذا النحو، يعني أن ماهر هذا في تحالف مع آخرين، لن يجرؤ على التصرف بهذا الشكل وحيدًا!

خرجت لأجفف جسدي المرتجف. ارتديت ملابسًا ثقيلة، وخرجت لأرتمي على سريري منهكة. تزوجت في الشتاء، وأنجبت في الشتاء! شهور الشتاء تشعرني بحزن وكآبة عجيبة، لكن هذه المرة، الشتاء بريء مما أمر به.

شعرت بدخول علي من البلكون، فاعتدلت جالسة : انتي كويسة؟

قالها بآلية وبلا روح. مددت يدي لأمسك بيده: علي أنا عايزة أمشي، احنا لازم ناخد حسين ونمشي!

نظر إلي بدهشة: انتي تعبانة!

تنهدت بقوة: أنا مش تعبانة، أنا أخدت قرار ومش هرجع فيه! حوار يحيى يخلص ونمشي، ومش همشي هربانة لإني مش غلطانة، أنا هخرج أنا وانت واحنا شايلين ابننا وخارجين، ومفيش حد ليه إنه يوقفنا!

ابتسم وبدت على وجهه سعادة حقيقية، وضمني إليه. شعرت بالإرهاق يزيد، حتى أنني غفوت! فتحت عيني، كان النهار سطع وأنا نائمة، بينما علي غير موجود. عرفت أنه وأبي في الشركة. حسنًا، توقعت هذا.. هو لن ينفصل في نفس ذات اللحظة. نحن ننتظر أن ننتهي من مشكلة يحيى.

أفاق يحيى بعدها ببضعة أيام كنت استرددت فيها عافيتي. أمرني الطبيب ألا أرضع حسين؛ لأنني ما زلت ضعيفة، فلم أبال. كيف أكون أمًا إن لم أرضعه؟! أشعر به يمتص غذاءه من روحي، كما كان يفعل بداخلي، أبتسم وأشعر بالدوار بعدها، فأعوضه بالطعام. لا إحساس في الدنيا يضاهي إحساس إرضاع طفلي. عندما كنت طفلة، كنت أتقزز من الأمر، أشعر بأن الأطفال كائنات طفيلية كالعلق يمتصون الطعام، إلا أنني اكتشفت أنه لا يتغذى مني، بل أنا من يتغذى منه! أعطيه لبنًا فيعطيني سعادة.

قررت زيارة يحيى، فوجم علي ورفض أبي! صممت فأخبرني أنه لو أردت عليّ ترك حسين! لم أعد أتحمل تحكماته! تركت حسين مع أمي وذهبت إلى المستشفى مع مازن، وأنا أفكر في أنه..... فصبر جميل!

لم يتوقع يحيى الزيارة وأثارت ضيقه! كان جالسًا على كرسيه، بينما يسند رأسه إلى أعلى الكرسي. جلست بجواره وقد جلس معنا مازن دقائق، قبل أن يتركنا ويخرج. أخرجت هاتفي المحمول لأريه صور حسين. لان وجهه كثيرًا. ابتسم وسأل: سمّيتوه إيه؟

صوته مبحوح بشدة، بالكاد أسمعه : حسين..

اهتز ضحكًا: أكيد جوزك اللي سماه!

فهمت من أسلوبه أنه حتى اسم علي يرفض ذكره. سألته السؤال الذي يقتلني، وإن كان يقيني أن إجابته لا..

– يحيى.. بابا اللي عمل كده؟

لم يدق الشك بابي، لكن مازن!! مازن يجعلني أسأل لا أتساءل، أسأل وأنا أشعر بمدى حماقتي لطرح السؤال. ابتسم يحيى بسخرية..

– انتم مجانين!

اقتربت منه أكثر وأنا أخفض عيني عن الضمادة الضخمة التي تحيط برقبته..

– وده؟

قلتها وأنا أضع يدي على الكرسي المتحرك، أزاحها بضيق وهو يجيب: أنا جاوبت ألف مرة ومش مضطر إني أجاوب تاني! الدكتور مانع إني أتكلم لإني بأذي نفسي، ولو اتكلمت أكتر هتبقى مشكلة، لإن صوتي ممكن يفضل كده! فاهمة يعني إيه صوتي يفضل كده؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة عابثة مجيبًا: يعني يبقى صوت مارلون براندو على وشي! أنا هبقى لا أقاوم!

قالها غامزًا بعينه اليسرى، فأفلتت مني ضحكة على الرغم مني! بهذه السرعة يا يحيى تستطيع أن تتملص من الأسئلة!

قررت العودة، فأخبرني أنه سيخرج غدًا، وأن أمي مصممة على عودته إلى الفيلا، بينما هو غير راغب في ذلك. أخبرته أن عليه العودة حتى تنتهي العاصفة، وأنا أعده أن أبي لن يحتك به إلا بعد ذهابي! استوقفته كلمة ذهابي، تساءل فأخبرته بنيّتي. لم يجب، نظر إلي نظرة غضب لم يوجهها إلي من قبل، وطلب مني أن أهاتف مازن لأرحل معه. طلبته في حين أنه ظل شاردًا، وإن فهمت أنه يغلي غضبًا. لعنت حماقتي للكلام في وقت غير مناسب. أتى مازن، وحاولت قبل أن أرحل أن أقبل رأسه كعادتي فأبى! دفعني برفق موجهًا كلامه لمازن بصوت مبحوح: خلي بالك منها.

في الطريق سألني مازن عما حدث، فلم أجب. عدت منهكة ألوم نفسي على ما كان. انزويت في غرفتي حتى عودة علي. سألني بلا اهتمام عن يحيى، فلم أجب. أشعر

بالضيق من الأمر كله! لكل عائلة أسرارها، مهما بدت العلاقة بين الزوجين مبنية على الصراحه، تبقى أمور لابد ألا تُذكر. عمل علي مع أبي جعل عائلتي عارية أمامه. اتهام مازن لأبي بقتل يحيى جعلني عارية أمامه. حتى محاولة التظاهر بالاهتمام لأمر يحيى، لم يعد قادرًا عليه! أخبرته بوجوم أنني أخبرت يحيى بنيتي بالانفصال عنهم، وأن ردة فعله كانت غاضبة. تشاجر معي وأخبرني أنني غبية!! لم أجب؛ لأنني شعرت أنني حقًا غبية! مرت ساعات قبل أن ينام، فأنام أنا الأخرى وأنا أشعر أنني أتعس امرأة في الكون!

في صباح اليوم التالي، خرج الجميع وخلت الفيلا علينا، إلا مني وأمي وحسين الصغير. صرفنا الخدم جميعًا حتى نعمة. أخذت أمي تعد الطعام احتفالًا برجوع يحيى، بينما أخذت على نفسي مهمة ترتيب غرفة يحيى الجديدة. خلال فترة غيابه، قامت أمي بتصميم غرفة له في الطابق الأرضي لتناسب وضعه الجديد. رحت أرص ملابسه في دولابه وأنا أشم عطره فيها. هل أستطيع أن أفعلها حقًا؟ هل أستطيع أن أرحل وأتركهم؟ سمعت صوت بكاء حسين في غرفته من جهاز المتابعة. صعدت إليه، إلا أنني دهشت أن البكاء اختفى فجأة. فتحت باب غرفته فلم أجد له أثرًا. هل أخذته أمي؟ كدت أخرج من الغرفة، إلا أن يدًا حديدية أمسكت بي لتكبلني، بينما باليد الأخرى راح صاحبها يكمم أنفي وفمي بقماشة مبللة بمخدر! كتمت أنفاسي وأنا أحاول أن أتملص منه. سمعت صوت صراخ أمي من أسفل. رفعت قدمي لأدفعها إلى الدولاب أمامي لأسقطه أرضًا، لا أدري ماذا كسر، لكنني وجدت وأنا أتملص أن قطع زجاج قد جرحت يدي! أمسكت إحداها وهويت بها على فخذه ذابحا. خفت قبضته وأنا أعرف أنه هالك لا محالة. لقد قطعت شريانًا حيويًا. نهضت وأنا أشعر بالدوار الشديد. وقفت حائرة، هل أنزل لأمي أم أبحث عن ابني؟ في حيرتي وجدت آخرًا أمامي، كسابقه ملثم، اندفع نحوي لأذبح رقبته بقطعة الزجاج التي أمسك بها! لقد اخترقت لحم يدي حتى صار صعبًا إخراجها! خر هو الآخر، لأجد ثالثًا يمسك بي. حاولت التملص أو جرحه، لأجد رابعًا يقيد قدمي!! لا أدري حقيقة كم عددهم، لكنني شعرت بأنهم أكثر من ثلاثة. هذه المرة لم أستطع التملص حقًا، تشرب أنفي المخدر لأفقد وعيي.

فتحت عيني لأجدني نائمة على سرير مريح، غرفة واسعة. أول ما فعلت هو أنني تحسست ملابسي لأتأكد أن أحدًا لم يعبث بجسدي وأنا فاقدة الوعي، لأجد أنه لم يحدث على الأرجح. دوار شديد داهمني عندما حاولت النهوض. أفتح باب الغرفة وأنا أستند بيدي التي جرحتها في معركتي الخاسرة لتؤلمني بشدة. مضمدة بعناية. شبح رجل ما يقترب، اقترب أكثر ليمسك رأسي بين يديه. حاولت التملص بهيستيريا فأمسكني. كان يتكلم بصوت آذاني. لحظات حتى ترجمت ملامحه، لأجد أنه علي!

هدأت مرتجفة! يتكلم ويتكلم. وضعت يدي على فمه ليصمت. تحسنت حالتي، لأسأله عن حسين فيخبرني أنه بخير.

– أمي؟

– هي كويسة.. أنا طلبت محدش يئذيها.

أمسك يدي بين يديه برفق كأنه يكلم طفلة: غصب عني يا بسنت.. عمر ما حد فيهم كان هيوافق على خروجنا.. ماهر كان راجل معايا في كل كلمة، وكلها خمس ست أيام وهنكون بره مصر بباسبورات جديدة وأسامي جديدة ووشوش جديدة.

راح عقلي على الرغم من الدوار يربط كلامه.. ماهر؟ ماهر الزين؟ ماهر الزين الذي بعث رجاله ليذبحوا يحيى في شقته؟ ماهر الزين الذي ضرب رجاله نارًا على أبي؟ ماهر الزين؟؟؟؟

صفعته! على الرغم من الدوار الشديد استطعت أن أفعلها. أمسك يدي بغل: اسمعيني..

لأكررها باليد الأخرى!

ألقى بي بكل قوته إلى الحائط، ليرتطم وجهي بعامود بارز. شعرت به يمسك بشعري ليعيد خبط وجهي إلى نفس العامود ثانية وثالثة!! شعرت بالدماء الساخنة تغرق وجهي. لم أجد أي قوة للمقاومة. عرفت في تلك اللحظة أنني قُدّر لي أن أفقد حياتي على يد من وهبته قلبي

الفصل الثلاثون

اذا اردت شيئا بشده فاطلق سراحه...هو شعار الحمقي!

اذ اردت شيئا بقوه انتزعه حتي لو لم يكن لك !

عندها تكون قد امتلكته! لقد صار ملكك بالفعل!

* * *

أتأمل الطبيب وهو يعني بجرح وجهها النازف، بينما أنا أرتجف. هل جننت؟ الحقيقة أنني جننت حقًا، وإلا لهربت ولما عدت لهذا الجحيم مرة أخرى. هل تأذت عينها؟ أسأله فيجيب أن لا. الجرح فوق عينها، التورم هو ما يجعلها مغلقة.

– الجرح ده هيحتاج خياطة.

قالها وبدأ عمله بالفعل. خمس غرز!! أفرك يدي بعصبية وأنا أسأله: هتسيب علامة؟

أجاب بلا اهتمام: طبعًا هتسيب علامة.. عامة متقلقش من العلامة، بعد ما الورم يخف نعمل تجميل.. اللي قالقني يكون عندها نزيف في المخ!

عضضت شفتي توترًا. لا، لن أحتمل هذا! لن أحتمل أن أخسرها. صرخت فجأة بألم وهي تحاول الإمساك بيد الطبيب، الذي يخيط جرحها. هرعت للإمساك بيدها، أحكمت قبضتي عليها.

– انتي عارفة اسمك إيه؟

همهمت بكلمات غير مفهومة، قبل أن تصرخ ثانية إثر دخول الإبرة في لحمها: بسنت حسين محمد صلاحي..

قطب حاجبيه بقوة: انتي بنت حسين صلاحي؟

صرخة أخرى..

– انت محطيتش بنج؟!

قلتها وأنا على وشك جز عنقه!

– لا، ما هي مكانتش حاسة.

رفع الملاءة ليكشف عن قدمها..

– حركي صوابع رجلك اليمين يا بسنت.

قالها وهو ينظر إلى قدمها، حركتها ببطء وهي تتأوه. فقدت وعيها مرة أخرى، ليخبرني أنه لا نزيف في المخ، هي فقط متعبة ومحتاجة للراحة.

أخرج شيئًا ما ليحقنها به..

– إيه ده؟

قلتها متسائلًا!

– دي حاجة هتريحها.

رحت أبعد خصلات شعرها للخلف، بعضها مبلل بالدماء. هتريحها؟! لا أدري متى قفزت من مكاني لأمسك به..

– انت اديتها إيه؟! انت عارف لو جرى لها حاجة؟!

أبعد يدي عنه ببرود..

– ليه هو أنا مجنون؟ دي بنت حسين صلاحي!

قالها وهو يخرج، تاركًا إياي وحيدًا معها. تركتها لأطمئن على حسين في غرفة ملاصقة لغرفتها. امرأة عجوز تعني به. عدت إليها ببعض المناشف وطبق به ماء دافئ، ورحت أمرره على خصلات شعرها التي جفت وهي معجونة بالدماء. لماذا فقدت أعصابي بهذا الشكل؟ هل لأنني غامرت بكل شيء من أجلها ولم تقدر هي ذلك؟ هل لأنها صفعتني ونعتتني بالخيانة؟ أم لأنني ولشهور حبست بداخلي الكثير والكثير، فلم أستطع التحمل أكثر؟ أخرجت غضبي كله في لحظة في الوحيدة التي أعطتني كل شيء! أعرف يقينًا أنها ساندتني وتحدت عائلتها من أجلي. كان والدها يستطيع قتلي بسهولة، إلا أنها وقفت له بالمرصاد. في حياتي كلها لم أشعر بذلك الحب، ذلك الاهتمام هو ما جعلني أغامر بكل شيء من أجلها.

عشت طفولة بائسة بعد موت أمي فأبي، أعالني عمي طمعًا في مالي، لأعيش في بيته أسوأ أيام حياتي. الحقيقة أن بسنت بالنسبة إلي كانت أمًا قبل أي شيء، عوضني حبها عما مضى؛ لذا كان من المستحيل أن أرحل وأتركها! حتى يوم رفعت المسدس في وجهي، أعرف يقينًا أنه خطئي! أنا من أهنتها.

أعود إلى ذكرى ذلك اليوم، حيث خرجت وقد قررت ألا أعود لمنزلهم وليحدث ما يحدث. انتصف اليوم وأنا لم أفكر إلا فيها. ذهبت إلى ذلك المول الضخم، كنت أريد أكبر تجمع من الناس حولي. لم أجد ما أفعله فقررت العودة.. إلى أين؟ فكرت في البيات في أحد الفنادق. بينما أنا في جراج ذلك المول متجهًا لأخذ سيارتي، شعرت بفوهة المسدس توضع في جنبي..

– اتفضل معانا!

تحركت مع ذلك الرجل بهدوء لأركب سيارة رباعية.. أجلسني في المنتصف وغمى عيني. وصلنا إلى مكان أظنه كان مخزنًا، حيث رأيته للمرة الأولى.. ماهر الزين!

كان وسيمًا ذا شارب ضخم. ابتسم بهدوء ليبدأ كلامه معي، ليخبرني أنه يدري ما يجري في منزل حسين. لم يطلب مني الكثير، فقط بعض المعلومات عن عمل حسين في الفترة القادمة. لم أجب.. رفضي معناه قتلي هنا، موافقتي تعني خيانتي لحسين، الذي ربما لا أحبه، لكنني حتمًا لن أفكر في خيانته. بينما أنا في طريقي

للخروج، سمعت صوت ماهر يدوي: خد بالك.. اللي معايا دايمًا كسبان.. واوعى تفتكر إني بتصرف لوحدي، حماك بقى مكروه وكلنا أخدنا قرار نخلص منه.. اختار الجنب الصح وأنا أوعدك إن مراتك واللي في بطنها بإذن الله هيكونوا بأمان، ده وعد مني وعمري ما برجع في كلامي.. اسأل عن ماهر الزين وانت تعرف إن كلمتي سيف على رقبتي.. ورقبة غيري!

كان كلامه تهديدًا صريحًا، إلا أنني حقًا لم أهتم. قرت ليلتها أن أعود لأخبر حسين وأطلب منه أن يبعدني أنا وزوجتي من تلك الحياة، إلا أنني خفت! جبنت كثيرًا وترددت، خصوصًا بعدما ضمني إليهم وطلب من أبنائه اعتباري منهم.

بعدها كان غضبه على يحيى كاسحًا. كنت أتأمله مذهولًا، بينما وقف يتابع قتل ابنه أمامه. لن أكذب وأقول إنني تعاطفت مع يحيى، بل إنني شعرت بالشماتة عندما اختطفه الرجال من منزله كما فعل معي من قبل. كنت أعرف أنه لن يتورّع عن قتلي إذا أتيحت له الفرصة، لكن رد فعل حسين معه أصابني بالهلع! هذا الرجل مجنون حتمًا ليلقي بفلذة كبده بهذا الشكل لذئاب تنهشه، لمجرد اعتراضه على أمر له! إذا كان هذا رد فعله مع ابنه، فكيف سيكون رد فعله معي إذا ما عرف بلقائي وألد أعدائه؟ بت ليلتها مرتجفًا وأنا أفكر في كلام ماهر. الحقيقة أنه ولولا تصرفه مع يحيى، لما فكرت بهذا الشكل. أنا لست خائنًا، أنا خائف من مختل!

تنهدت بقوة وأنا أتأملها. حسنًا لم يطلب ماهر سوى بعض معلومات عن صفقات وحجمها وأماكن ومواعيد تسليمها. كنت أخبره مرة بأخبار صحيحة، ومرات بأخبار خاطئة. لو أنه قرر مهاجمة عمل حسين أو الإبلاغ عن صفقاته، فستوجه إلي أصابع الاتهام لأنني الفرد الجديد. الحقيقة أن هذا كان مجمل عملي معه، حتمًا لم يكن لي يد بما حدث ليحيى، وإن لم أتأثر به أيضًا! أنا أكرهه وأرى أنه يستحق ذلك. عائلة مسمومة تأكل بعضها بعضًا، عائلة مسرطنة خلاياها بلا خلية واحدة نظيفة! العائلة التي يتهم فيها صغيرهم كبيرهم بالقتل، هي عائلة لا أريد لابني أن ينمو فيها!

أتت علي تلك اللحظات التي كرهت فيها بسنت، فكرة أنها نشأت بينهم، جعلتني راغبًا عنها. كانت مشاعري نحوها مضطربة بشدة في تلك الفترة. أحببتها بجنون؛

لذا كنت للحظات أكرهها بجنون! فكرت في أن آخذ ابني وأرحل. رحت أعطيها cytotec tab فور اطمئناني على صحة ابني كجنين؛ لأسرع إنجابه قبل ميعاده. أردت أن آخذه وأرحل، إلا أنها كادت تقضى بسبب ما فعلته! قررت أنها لم تذنب وأنها بعدها لم تتلوث مثلهم. علي أن آخذها هي الأخرى وأرحل.

تورم وجهها بشكل آذاني. تمنيت لو قطعت يدي ولم تؤذها. انتِ حبي الوحيد يا بسنت، لماذا لم تفهمي هذا؟ أرحت رأسي على مسند الكرسي وأنا جالس بجوار سريرها. ماهر وعدني بالسفر للخارج خلال أيام. علي أن أقنعها بأيام ألا تقاومني في السفر. لدي حسين الصغير كورقة ضغط، حسين الذي أفكر عمليًا في تغيير اسمه لأي اسم آخر، لا أريد من هذه العائلة أي شيء سواها.

على مدار الأيام التالية كانت صامتة. رد فعلها بدأ عنيفًا، ثم درج في الهدوء عندما منعتها من رؤية حسين. كان من الصعب علي أن أقيدها في غرفتها وأجبره على البكاء في الغرفة الملاصقة لتسمعه وتنهار. يعلم الله أنني تماسكت بصعوبة، إلا أنني لم أجد حلًا آخر. علي أن أجبرها على السفر معي دون مقاومة. كنت أحاول الكلام معها مرة بالعقل، ومرات أفقد أعصابي لأصرخ فيها؛ لتفهم أنني أفعل كل ذلك من أجلها. أخرجها إلى الشرفة أو الحديقة مرة، وأعود لأقيدها في غرفتها مرات. لم أسمع خبر من ماهر وإن حدثني أحد رجاله أن الحرب دائرة في القاهرة؛ لذا سيتأخر سفرنا، مما أقلقني. مر أسبوع قبل أن تصير صامتة تمامًا. بعدها بيومين وجدتها تلقي بنفسها في صدري وتبكي!

– ليه كده يا علي؟ أنا حبيتك!

احتضنتها ورحت أقبّل ما طالته شفتي من وجهها ويدها بجنون..

– أنا عملت كل ده عشانك، عشان بحبك.. مكانوش هيسيبونا.. شوفتي يحيى لما قلتيله إنك هتمشي عمل إيه؟ ده كان في المستشفى! لو كان واقف على رجله كان قتلني! مكانوش هيسيبونا في حالنا يا بسنت.

قضت ليلتها في حضني نائمة. أشعر بقطرات دموعها تكوي صدري كيًا.

– هششششش.. باااااس..

أقولها مهدئًا ومهدهدًا، ضامًا إياها إلي أكثر، إلى أن غفوت. أفقت عندما شعرت بها تنسل من حضني. فتحت عيني بصعوبة شديدة على ضوء مصباح آتٍ من الخارج. رأيتها تبدل ملابسها. حاولت أن أنهض، إلا أنني لم أستطع! كنت كالمشلول! حاولت أن أناديها، إلا أنني لم أستطع أيضًا! لمحت بطرف عيني كوب العصير بجواري. خاطر مرعب أتاني ببطء، بينما أنا عاجز. وجدتها تتجه نحو الشرفة ممسكة بهاتفي. أيها الأحمق! تركت لها هاتفك!!

لحظات حتى سمعت تبادل لإطلاق النار..

– ابني!

سالت الدموع من عيني بينما هلعي يزداد. فتح الباب بقوة ليضيء أحدهم النور ليعميني! فتحت عيني بصعوبة، لأجدها تستلم الرضيع من مازن! بينما اقترب مني هشام حتى أطل برأسه فوق رأسي تمامًا، ليرفع حاجبيه إلي بمعنى مرحبًا، ثم ليلكمني بالمسدس لكمة قبل أن تفقدني وعيي، سمعت منها كسرًا لعظام أنفي!!

الفصل الواحد والثلاثون

فلتعش في الماضي، ولتحارب في الحاضر، فقط ليأتي مستقبلك مفاجئًا مخالفًا لما عشته ، وما حاربت من أجله!!

* * *

جلست مع هشام لنفكر في خطوتنا التالية. الأمر ليس هينًا، ماهر الزين ليس بالخصم السهل. قرر أبي تركنا ليصعد. هززت رأسي وأنا أتحاشى النظر إليه. كانت ليلة عصيبة، اتهمته فيها بمحاولة قتل يحيى، وتشاجرت معي بسنت، وانتهت باكتشاف براءته. كان هشام قد وضع أمامه ورقة بيضاء ليرسم عليها كلامه! أعترف له أن عقله جبار، وإن كان يشرح نفسه بالرسومات الكروكية، حتى لو كان يصف شخصًا ما! يكفي رسمه لصندوق مغلق، لتعرف أنه يتكلم عن أبي! أبي الذي لا أعرف حقًا هل صدقت براءته سريعًا لأنني اقتنعت بما قال هشام، أم لأنني بدأت أنسى ما كان وأصفحت!

كان هشام يتكلم بينما رأسي يزنّ، قاطعته بضيق: هشام أنا قابلت واحدة في المستشفى عند يحيى وعجبتني.

قلتها وأنا أتوقع نهرًا أو غضبًا، إلا أنه وضع القلم من يده وهو يريح ظهره إلى الخلف مشعلًا سيجارة: حلوة؟

دهشني رد فعله فأومأت إيجابًا: دكتورة.. اسمها عاليا.

نفخ دخانًا وهو يحرك يديه في الهواء ليصف جسدًا أنثويًا: حلوة؟

شعرت بالضيق من أسلوبه. هشام لا يفكر في النساء إلا بأسلوب شهواني يقززني. أعترف أنني أفكر أحيانًا بهذا الشكل، وهذا سر تعدد علاقاتي، إلا أن شهوانية هشام هي ما تحركه دائمًا وأبدًا! لا يرى من النساء إلا جسدًا! حتى وأنا أصف له امرأة

أعجبت بها، لم يراع أنني أخوه، عقله مبرمج على أمر واحد! لابد أن امتعاضي بدا واضحًا لأنه صمت للحظات..

– فـإيه يعني؟ متجوزة؟ مصاحبة؟ مفتحة ولا بتاعت أبويا وأنا بنت بنوت؟

حككت رأسي بضيق: أنا عايز أتجوزها يا هشام.

زفر بقوة وهو يدفن ما تبقى من سيجارته بعصبية: خلاص.. خلينا نخلص الحوار ده وأنا أكلم بابا إنك عايز تتجوز، هو بعد جواز بسنت وخلفتها سهل أقنعه إن اللي عايز يتجوز يتجوز ونملاله البيت عيال! بس ركز معايا شوية، عشان اللي جاي مش عايز لا توهان ولا نسوان!

سعدت بكلامه. هشام عملي جدًا، على الرغم من سخريته معظم الوقت. لو أنه قال إنه يتوقع موافقة أبي، فهو حتمًا يتوقعها. يختلف كثيرًا عن يحيى المطيع الخائف دائمًا من غضب أبي والمتمرد مؤخرًا. انتهينا من التخطيط لما هو قادم، والذي سيحتاج من أبي جولة زيارات مكثفة لشركاء السوق، أولهم ياسين الطيب! ياسين يعتبر الأثرى والأكثر نفوذًا فيما يتعلق بعملنا، أتى ثراؤه ونفوذه لأنه على عكس أبي، فضل أن يصاهر من أبناء شركائه. تستطيع أن ترى أن الأمور تجري مرة في اتجاه ناجح، ومرات إلى الفشل. الفتاة التي تتزوج في سن العشرين ابن أحد شركائه في الأربعين من عمره، الحفيد الشاب الذي يتزوج أرملة أكبر سنًا من والدته! هناك قطعًا استثناءات ناجحة. ياسين سيكون حجر الأساس في لقاءات أبي لسببن؛ أولهما أنه له كلمة نافذة على بقية المنافسين، الذين حتمًا سيرون في تصفية ماهر تهديدًا لهم، والثاني أن ماهر صديق طفولته!!

في صباح اليوم التالي، اتجهت إلى المستشفى لأُقلّ يحيى إلى الفيلا. كنت أشعر بالضيق لأن سبب عودتي إلى هنا سينقطع. ألقيت عليها نظرة سريعة بينما هي في طريقها إلى غرفة أخرى. لم تلحظ حتى وجودي. تبدو جادة. حسنًا.. انتظريني بضعة أيام يا عاليا، من فضلك.

كان يحيى واجمًا ولم يتحدث. الحقيقة أن دكتور جميل قد أمره بعدم الكلام، إلا أنه كان قليلًا ما يتحدث إلينا. أعرف أن هناك شيئًا ما أغضبه في زيارة بسنت. هو يرفض الكلام وهي كذلك! حسنًا، لن يظل الحال على ما هو عليه عندما يجمعنا سقف واحد. أحدهما سينطق حتمًا!

قبل وصولي للفيلا، تلقيت اتصالًا غامضًا من هشام أن أنتظر. لاحظت سيارتين مسرعتين إحداهما توقفت أمامنا والثانية خلفنا. اتصال آخر من هشام أيضًا، يطمئن لوصول السيارات، ثم انطلقنا إلى الفيلا. لم أفهم سر هذا التصرف إلا عندما وصلنا. توترت وأنا أرى بعض الجثث ترفع إلى سيارة رباعية سوداء!

– هو في إيه؟

قالها يحيى بصوت مبحوح. خرجت من السيارة، ثم ساعدته للجلوس في كرسيه الذي أتينا به معنا. دفعته إلى الداخل، بينما توتري يزيد. آثار معركة، دماء، أبي يمسك بشيء ما ليوقف به جرح نازف في رأس أمي!! بسنت؟ حسين؟ علي؟ سألت أبي فلم يجب. أتى هشام من الخارج يؤكد أنه لا أثر لجثثهم! تم اختطافهم إذن!

– لازم تجيبوا أختكم.

قالتها أمي بصوت راجف. تراجع يحيى للخلف بكرسيه بغضب، قبل أن يشير إلينا أن نتبعه. تبعته أنا وهشام ليخبرنا بصوت مبحوح: بسنت متخطفتش، بسنت هربت.

جلس هشام أمامه بهدوء..

– انت بتقول إيه يا يحيى؟

– بقول اللي قالتهولي في المستشفى يا هشام.

– هي قالتلك إنها هتهرب؟

قالها هشام بنفس الهدوء، مما أشعل غضب يحيى: انت عبيط؟ أكيد مقالتش كده، قالت إنها هتمشي!

تنهد هشام بصبر..

- انت المفروض أكتر واحد عارفها يا يحيى.. عمرها ما هتهرب.. بسنت وإن كانت دبلوماسية، إلا انها مش جبانة! ممكن تكون شايفة إن خروجها من هنا حقها، وده هيخليها تدافع للنهاية عن وجهة نظرها.

ازدادت حدة يحيى وازداد صوته بحًا: انت بتدافع عنها كده ليه؟

رد هشام بنفس الصبر: عشان لو اتصرفت للحظة على أساس إنها هربانة مش مخطوفة، عمري ما هقدر أرجعها، وفعلًا هتبقى حياتها هي وحسين في خطر، لكن لو فكرت انها مخطوفة وطلعت هربانة، يبقى برضو هجيبها هي وابنها.. بس من غير ما حد يمسهم!

أظلم وجه يحيى: لو طلعت هربانة تجيبها هي وعلي عايشين.. فاهمني؟

لم يجب هشام وإن هز رأسه إيجابًا. لم أصدق ما يقوله يحيى، وإن فسر كثيرًا سبب صمته وصمتها. فتح أبي باب الغرفة دون طرق..

- هشام ومازن.. هتيجوا معايا للطيب، أنا لسه مكلمه، وانت.....(قالها مشيرا ليحيى) خليك مع ماما والرجالة هيحموكم.

- الحامي هو الله!

قالها يحيى استفزازًا، فنظر له أبي بغل جعل هشام ينهض مشيرًا إلى أبي أنه تحرك بالفعل. لم أجد بد من أن أتحرك أنا الآخر وأتبعهم. كنت أشعر بتوتر شديد. فكرة أن ياسين سيخذلنا قائمة. فكرة أن ما يفعله ماهر بموافقة ياسين قائمة!

وصلنا إلى قصر الطيب حيث كان حفل مقامًا، عيد ميلاد أحد أحفاده! كانت الحديقة أقرب لحديقة الحيوانات بأقفاص القرود والعصافير، في حين أن حفيد الطيب كان راكبًا على ظهر فيل!! يدور به في زي مهراجا، يوزع عطايا على أصدقائه الفرحين! لا أصدق ثراء الطيب الذي يجعله يقيم مثل هذا الحفل لطفل في الثامنة من عمره!!

استقبلنا شريف ابنه الأكبر. شريف ذراع أبيه اليمنى، التي أتمنى شخصيًا أن تُقطع! أراد بسنت بشدة إلى حد الجنون ورفضه أبي بقوة، الأمر الذي تعامل معه ياسين بدبلوماسية لم تخلُ من استياء. أعقب رفضه إشاعة شذوذ يحيى التي انطلقت كالنار في الهشيم، ونعرف جميعًا أن مطلقها هو شريف. تبعناه حتى مكتب أبيه الذي استقبلنا بترحاب شديد. كان الرجل يتحدث بصفاء شديد أقلقني. هي طبيعته التي جلبت له الثراء والعلاقات والنفوذ. مرح وكريم و و.. يطلق دعابات قاتلة فعلًا. كل هذا ولا يتورع عن القتل والذبح وتصفية من يقف في طريقه. يختلف حتمًا عن أبي العابس ونفاذ صبره الدائم. كاد ياسين يسترسل في حكاية أخرى خاصة بأحد أحفاده، حين أوقفه أبي بإشارة من يده: ياسين انت عارف أنا هنا ليه؟

هز ياسين رأسه وعلت وجهه ابتسامة: انت طلبت نتقابل..

– من الآخر، أنا هصفي ماهر الزين!

ساد صمت دام بضعة دقائق تبعه أبي: ماهر تخطى حدوده، خان العهد اللي بينا! مش بيحاول ياكل السوق بتاعي وبس، لا.. ده حاول يقتلني ويقتل يحيى ابني!

تنحنح ياسين قبل أن يجيب برزانة: دي ادعاءات، لازم يكون عندك أدلة عليها يا حسين.. لإنها ممكن تتفهم إنك عايز تصفيه عشان تاكل نصيبه من السوق، ودي حاجة مفيش حد هيقبلها.

– عشرين في المية من سوقه ليك..

قالها أبي ليتغير وجه ياسين ولم يجب. خرجت الإجابة من فم شريف، الذي رد بسخرية: انت جاي تصفي أعز أصحاب أبويا وبتعرض عشرين في المية؟ لما انتم قادرين من الأول انكم تصفوه، جايين ليه؟ انتم محتاجين مساعدة مش هتلاقوها هنا!

احتقن وجه أبي ولم يجب. وجدت هشام يشعل سيجارة وينفخ دخانها بهدوء..

– خمسين في المية ليك وللباقيين إن محدش يقف قدامنا!

استدار أبي له بحدة، في حين أن هشام ابتسم بهدوء ليندفع شريف: انت فاكر أبويا إيه؟ احنا لو عايزين نصيب ماهر كله كنا خلصنا عليه ومحدش كان هيقدر يفتح بقه! خمسين في المية.. هيبه! انت مجنون؟

اتسعت ابتسامه هشام: بص يا حبيب بابا (قالها مقطعًا بإصبعيه كأنه ينبه طفلًا) أبوك كان هيرضى بالعشرين، بس أنا أبويا كريم، إحنا عرضنا الخمسين عشان نثبت إننا مش طمعانين في سوقه، وعشان برضو موضوع صاحب عمره.. احنا مقدرين الحتة دي!

– انت زودتها أوي! اتفضل إطلع بره!

قالها شريف بصوت هادر، مما أثار ضحكي! الحقيقة أن تصرفاته وأسلوبه لا تتماشى أبدًا مع حجم عملهم، ولا تتماشى مع طبيعة والده! الرجل ربي طفلًا ولم ينضج! أطلق هشام ضحكة مجلجلة أثارت غضب شريف، في حين أن ياسين ابتسم بتحفظ.

– هرد عليكم كمان ساعتين.

قالها ياسين وهو يدعونا لمشاهدة الحفل، فاستأذن أبي أنه لا صبر له على الضوضاء. ركبنا السيارة للعودة وسط صمت دام، حتى ما إن وصلنا للفيلا، انفتح أبي في هشام لأنه تجرأ لمضاعفة الحصة، بل لأكثر من ضعفها. أخبره هشام أن الطريقة الوحيدة لضمان اهتمام ياسين هي المال. الرجل وعلى الرغم من فحش

ثرائه، مجنون بذخ وإنفاق وجمع المزيد من الأموال! هز أبي رأسه غير مقتنع، في حين أن هشام تبارد تمامًا.

مرت المهلة المعطاة للطيب، الذي حادث أبي ليخبره بموافقته على أن يشارك في التصفية شريف ابنه، هو يريد أن يتأكد من القضاء على ماهر وعائلته كلها، يريد أن يطمئن أن أحدًا منهم لن يبقى ليثأر! اندهشت من سرعة الاستجابة وأبديت تخوفي، ليجيب أبي أنه متوقع ذلك. ثراء ياسين جعل ماهر يصاب بسعار، حاول معه اقتطاع نسب من صفقات ليست له، وإن لم توافق يتم الإبلاغ عن الصفقة! الفكرة أن إحدى الصفقات كان فيها زوج ابنه ياسين الذي تمت تصفيته. علم ياسين بالأمر وضمر شرًا. حقًا هو كان يفكر في عقاب على نفس الوزن لصديق العمر، إلا أن وضع ماهر مختلف. عائلة ماهر الضخمة يتزوجون فيما بينهم كما يعملون! لذا فتصفية أحدهم تعني نقض الاتفاق الساري بعدم التعرض لأي أسرة. فإن كانت تصفية زوج ابنه ياسين جاءت على يد حرس الحدود، سيكون الأمر مختلفًا لو حاول ياسين قتل أحدهم! الأمر الذي جعل زيارة أبي مقبولة، بل ومرحب بها!

سألت أبي كيف عرف ياسين بالأمر، فابتسم ولم يعلق! سألته لماذا لم يخبرنا بهذا قبل ذهابنا إلى ياسين، فنظر إلي باستهزاء ولم يعلق! ابتسمت غيظًا منه.. ملعوبة يا حسين! استطعت تخريب علاقة ماهر بياسين! مستفز يا حسين على اللعب بأعصابنا!

اختلى هشام بأبي ساعة، ثم اجتمع بي وبيحيى الذي كان شاردًا معظم الوقت. ماهر مع عائلته في فرنسا لاقتراب الكريسماس، يقضيه في قصر منيف منعزل. هذا جيد، موقع القصر، هذا سيئ في فرنسا! لماذا لم نحاربه صيفًا ليكون في إيطاليا؟ الشرطة الإيطالية متعاونة جدًا! صحيح أنه حتمًا يوجد شرطي فاسد في كل مكان وزمان، لكن علاقاتنا ببعض مسؤولي الشرطة في إيطاليا موثقة بالفعل. سنعمل على إيجاد مسؤول فاسد في فرنسا لرشوته في وقت قصير، وهذا سيئ! أخبرني هشام أنني سأقوم بالمهمة بمفردي. سيكون معي شريف الطيب. سيبقي هنا هو ويحيى ليعمل على تصفية من بقي منهم هنا للعمل. معنى ذلك أن مهمتي على صعوبتها أخف وطأة من مهمتهم! صحيح أن عددهم في فرنسا سيتخطى الثلاثين فردًا، صحيح أنه

سيكون بينهم نساء وأطفال، إلا أن من تركهم ماهر لإدارة عمله في تلك الفترة، هم على الأرجح الأشرس!

انتهى هشام من رسم الخطة، التي كانت ببساطة القضاء على الجميع والعودة سليمًا. لملم أوراقه التي حتمًا لن يفهم منها أي شخص أي شيء.

– صحيح بالمناسبة.. بارك ليحيى!

نظرت إلى يحيى مبتسمًا: على إيه؟

– بابا خطبله هنادي بنت ياسين الطيب.

وجدت يحيى يبتسم بسخرية وبلا تعليق. توترت للفكرة. هنادي هي الابنة الصغرى لياسين، وتصغر يحيى بحوالي عشرين عامًا. هي من مات زوجها في العملية التي أبلغ عنها ماهر. كانت حبلى عندما مات وفقدت جنينها وقت معرفتها بما حدث. توترت.. ربما لأنني شعرت بالقادم..

– وانت كمان يا مازن، مبروك! بابا خطبلك مي بنت محمود عجلان!

قفزت من مقعدي غضبًا: نعم؟! ليه إن شاء الله؟؟ مش من حقه يعمل كده!

أشار إلي يحيى أن أجلس..

– اهدا يا مازن.. براحة بس.. انت شايف إننا في وضع يسمح بالاعتراض بعد اللي حصل لي؟ بعد ما واحد اتجرأ يدخل بيتنا ويضرب أمنا ويخطف أختنا وابنها؟ أبوك كان غلطان في تفكيره، ودلوقتي بيصحح غلطه! إحنا لازم يبقى لينا ضهر.. وضهر قوي كمان!!

نظرت لهشام بذهول، فهز رأسه بتعبير "هتنسى!" جلست محبطًا وأنا أشعر أنني محاصر. للمرة الأولى أشعر بالحصار إلى هذا الحد! لا أستطيع حتمًا أن أرفض؛ لأنه تكلم بالفعل! تراجعي سيعني حربًا حقيقة!

نظرت إلى هشام بيأس: وانت؟

– أنا جوازتي لست البنات! سليله عليه الطيب..

قالها غامزًا بعينه ليحيى..

– شوفت اخوات وعدايل؟

– مين؟

قالها يحيى باهتمام..

– شريف الطيب!

وددت أن ألكمه أو أخنقه أو أرد بأي شكل ففشلت، إلا من انفجاري ضحكًا! ارتسمت على وجه يحيى الكئيب ابتسامة، وراح يهتز ضحكًا هو الآخر..

– دوري جاي! لسه بابا بيدوّر.

خبط على ظهري بقوة: قوم نام، قدامك بكرة سفر طويل.

وقفت في مطار القاهرة أتنظر ميعاد الطائرة. وصل شريف ومعه رجاله، عشرة ومعي عشرة. كان هشام معي ليودعني، قبل أن أذهب لإتمام الإجراءات ثم الصعود إلى الطائرة، همس في أذني بعدما صافحني: هاتهولي سليم!

قالها غامزًا بعينه مشيرًا إلى شريف بتحية ساخرة! ابتسمت وأنا أحاول التملص منه، ليهمس في أذني بنبرة جادة هذه المرة: متغفلش عنه لحظة ومتديش حد ضهرك لحظة.

ابتسمت بثقة، وإن كنت متوترًا حقًا! كانت الرحلة سيئة والصحبة أسوأ. شريف صامت طوال الوقت، ولم أتمنَّ أن يتكلم لحظة! أخرجت هاتفي لأفتح صور حسين..

– ده ابن بسنت؟

قالها متسائلًا. شعرت بالضيق لاختراقه حاجز الخصوية كأننا نركب مواصلة عامة..

– أيوه.. حسين..

مددت يدي بالهاتف إليه من باب الذوق. أمسك هاتفي للحظة، وبدت على وجهه ابتسامة، بينما راحت عينيه تتفحص وجه الصغير. هز رأسه وهو يعيد الهاتف..

– ربنا يخليهولكم ويحفظه.

قالها بنبرة أثارت تعجبي؛ لأنها كانت صادقة! في المعتاد عندما يتحدث أحدهم بهذا الشكل، تفهم أنها لهجة تهديد، أما شريف! كان يدعو حقًا!

وضع قناع النوم على عينيه واسترخى. هناك ابتسامة حالمة على وجهه. لا أدري لماذا شعرت للحظة بالتعاطف معه. لم ينساها لحظة، وهذا واضح، بل إنه أمر أثار سعادتي. لربما تكون تزوجت وأنجبت، لكن فكرة أن أحبها شخص ولم يستطع أن ينساها، تشعرني بأن أحدهم عرف قيمتها ولم ينلها! نسيانه للأمر وتجاهله كان ليؤلمني حقًا! وصلنا إلى فرنسا، ولم أجد في نفسي أي رغبة في الراحة. بدأنا في بحث ما نحن بصدده مرة أخرى. سبعة وثلاثون شخصًا من عائله الزين، وعدد عشرة رجال للحراسة. هو يعتمد على رجال عائلته هنا، دعك من أنه لا يتوقع سوءً.

الخطة هي المنوم! كانت خطة شريف في الواقع، المشكلة أنه تمسك بها بجنون، مما أثار شكًا في نفسي. تمت رشوة الطاهي ليدس منومًا يبدأ مفعوله بعد نصف ساعة، سيكون من السهل بعدها التخلص من رجال الحراسة، على أن يتم جمع عائلة ماهر كلها في مكان واحد وقتلهم؛ حتى يتم التأكد من التخلص منهم جميعًا!

معي صور جوازات كل من خرج من مصر لتلك الرحلة؛ لنتأكد من التخلص منهم جميعًا. جلست في السيارة بانتظار إشارة رجالنا بمضي الثلاثين دقيقة، ومن ثم

الاقتحام. بعد صمت طال، بصوت متردد همس شريف: في صور تانية لحسين الصغير؟

كان طلبه عجيبًا، وإن كان صعبًا أن ترفض طلبًا لرؤية صور طفل! كنت أفهم أن هدفه ليست صور حسين الصغير، بل لأنه بشكل أو بآخر يرى بسنت فيه! أثار الأمر استيائي، وقررت أن أعاقبه. أخرجت الهاتف لأريه صور الصغير. واحدة تلو الأخرى كنت أسمع أنفاسه، أشعر بدقات قلبه. صورة فأخرى، لأتوقف أمام صورة لبسنت تحمل حسين، كانت تبدو منهكة، فلم تمر بيوم واحد جيد منذ وضعه. اضطربت أنفاسه وقطب حاجبيه. تركت الصورة قليلًا ثم حركت للصورة الأخيرة، حيث بسنت تجلس في حضن علي حاملة حسين. شعرت بسعادة غريبة وأنا أرى تأثير تلاعبي به. ابتلع لعابه بصوت مسموع، ثم قال بصوت مختنق: شكله مش مُريح جوز أختك!

هززت رأسي بلا اهتمام: هي اللي اتمسكت بيه.. بتحبه!

لم يجب. شعرت أنه يكرهني حقًا، وأنه سيقتلني بعدما ننتهي من ماهر..

– وهو بيحبها..

قلتها مضيفًا، ليرد بابتسامة ساخرة: ده شيء مفروغ منه!

أتتنا الإشارة فتحركنا. كانوا قد تخلصوا من رجال الحراسة بالفعل. توقفت لأسمح لشريف بالدخول أولًا، ليبتسم بسخرية مقدرًا خوفي من الإقدام، بينما كان خوفي الحقيقي ممن في ظهري، لا ممن يواجهني! كل خطوة كنت أتوقع فخًا من الطيب والزين، إلا أنه لم يحدث! كان الرجال قد جمعوا عائلة الزين كلها في بهو القصر. لم يكونوا مخدرين تماما ، بل يتابعون ما يجري بهلع صامت عاجز. سألت شريف فأخبرني أنه ليس منوم بالضبط، لكنه مخدر يشل العضلات. انتهوا بماهر الزين الأصلع ذي الوجه الحليق. كان مذهولًا مما يجري. توقفت أمامهم بتردد. فيهم نساء! فيهم أطفال! أغمضت عيني بقوة لأستعيد ما حدث لأبي، ليحيى، لأمي، لبسنت، لحسين! أخرجت سكينًا وذبحت أول من طالته يدي، كان طفلًا في الثالثة! بدا الألم

على وجه ماهر، وراح يحاول الصراخ هو والجميع دون جدوى. أسكرتني الدماء وسلطة السلاح، فرحت أعمل سكيني في رقابهم. كنت أنهج بشدة، توقفت لحظة لألتقط أنفاسي، لأجد شريف يحذو حذوي وبنفس الكفاءة! انتهينا سريعًا، بينما كان على وجه ماهر تعبير لم أفهمه. هل يأس من الصراخ؟ أم مات بالفعل وتوقف قلبه حزنًا؟ سحبت جركن البنزين لأسكبه على الجثث الهامدة. انتهيت منهم لأسكب ما تبقى على ماهر، ثم ابتعدت لأشعل ثقابًا وألقيه عليهم. صراخ مكتوم خرج من ماهر، مما أكد لي أنه ما زال حيًا. أمر شريف بسكب البنزين في أرجاء القصر، لتسير النار خلفه ملتهمة ما في طريقها، إلى أن وصلت للدفايات التي تعمل بالغاز لتفجر فيها، بينما كنا قد خرجنا بلا خسائر.

عدت إلى الفندق لأستحم وأجهز نفسي للسفر إلى ألمانيا ومنها إلى القاهرة. لابد أن تبدو الرحلة كرحلة تسوق. في طريق العودة للقاهرة، كنت سعيدًا ومتعجبًا من مرور الأمور بهذه السلاسة. يبدو أن ياسين أراد ماهر ميتًا حقًا! كف شريف عن الكلام ثانية، وإن راح يتصفح مجلات البورصة، تنحنح للحظة قبل أن يقول: انت عارف إن مراتي ماتت يا مازن؟

كنت أعرف حقًا، فهززت رأسي وأخبرته أنني كنت من المعزين..

– ماتت في حادثة عربية..

هززت رأسي مرة أخرى وأنا أعرف أنها حادثة ملفقة لقتل زوجة خائنة! هذا أقل ما تناله من زواج المصلحة! صمت للحظات..

– لو جوز بسنت جرى له حاجة، تفتكر هيبقى في اعتراض إني أتقدم؟

هل هو جاد حقًا؟! لم أجد في نفسي القدرة على الرد، لأن الذهول أخرسني! الرجل يخبرني صراحة نيته بقتل زوج أختي ليتزوجها!

– أنا آسف.

قالها وانزوى في كرسيه مرة أخرى ولم يتحدث ثانية، حتى وصلنا القاهرة، حيث صافحني بودّ وانصرف مع رجاله.

قررت ألا أخبر أحدًا بحديثه الأحمق. قد يؤذي الأمر بسنت لأن يحيى انتوى قتل علي في كل الأحوال! علي أن أؤجل الكلام في هذا الأمر قدر المستطاع.

عدت إلى المنزل، لأجد أن هشام وفق هو الآخر في مهمته، واختفت عائلة الزين كلها من على وجه الأرض. أبي مشغول بشدة لأنه يخرج من اجتماع ليدخل آخرًا، يرافقه صهر المستقبل ياسين الطيب! أخبرني هشام أن أرتاح لأن أمامي مهمة أخرى.

لقد وجدوا بسنت! اختطفها علي الذي كان يعمل لحساب ماهر الزين. لا أدري لماذا بدا الأمر بديهيًا إلى هذا الحد! لم أندهش لحظة، إلا أن هشام أخبرني أنهم في قصر منعزل في الساحل تحت حراسة من تبقى من رجال الزين! هم طبعًا لا يعلمون أن ولي نعمتهم مات!

– لازم نجيبها هي وحسين سُلام.. أنا مش هقدر أتحرك لإني مسحول مع بابا!

قالها هشام جادًا. أكمل يحيى: وعلي! أنا عايزه حي.

فكرت لأجد أن خطة شريف الطيب هي الأصلح. هاتفت دكتور جميل لأحصل على أي مسحوق له نفس التأثير. سافرت إلى الساحل ومعي ثلاثة رجال، وكل هدفي أن أعرف عددهم وطريقة تخديرهم. كنت أتأمل القصر بصمت، لأسمع صوت بكاء بسنت في حديقة القصر. اقتربت محاذرًا لأرهف السمع.

– اسمعيني بس.. انتي متخيلة أنا بعمل ده كله ليه؟ أنا جازفت بكل حاجة عشانك!

لم تجب. سمعت علي يصرخ: انتي عمرك ما حبتيني! انتي مبتفكريش غير في نفسك وبس! لو فضلتي كده أنا هسيبك! أنا هاخد ابني واسيبك هنا!

صوت تكسير، صوت اندفاع، صوته يبتعد. كان رجالي يطوقون القصر. ابعدت اللبلاب المحيط بالحديد الذي يطوق القصر

– بسسسسس..

رفعت رأسها إلي، هالني ما رأيته من تشوهها! مددت يدي إليها بعلبة صغيرة هامسًا: في أي عصير ما عدا البرتقان واللمون.. معادنا كمان يومين اتنين الفجر، لو تمام اديني أي إشارة نور في نفس الاتجاه ده!

بدون تردد أخذت العلبة واختفت من أمامي، لأختفي أنا الآخر!

عدت لأخبر هشام ويحيى ما كان. بدا الجمود على وجه يحيى، الذي علق بأن: خليها تتعلم الدرس للآخر! تجاهله هشام وصمم على أن يأتي بعلي بنفسه. وصلنا في الواحدة، وظللت يأكلني التوتر مع مرور الدقائق! لا أدري لماذا وجدتني أحكي ما كان من شريف الطيب. شعرت للحظة أنه كان يتنبأ بما سيكون..

– على جثتي لو شمها!

قالها هشام بغل!

– أنا أدفنها بإيدي ولا أزفهاله!

توترت وأخبرته أنه وبعد خطبة أخت شريف ليحيى، لن يجد أبي مناصًا من الموافقة.

– اخرس بقى!

قالها بغل حقيقي. كانت المرة الأولى التي يفقد فيها هشام أعصابه لهذا الحد!

دقت الساعة الثانية بلا استجابة من القصر. همس هشام بأنه سيقتحم. أمسكت يده وأخبرته أنه من الممكن أن نفقد بسنت فيها، فلم يجب. فطنت أنه ينوي هذا فعلًا، كي لا تتزوج مستقبلًا شريف الطيب. أيها الأحمق، وهل ترى الغد؟ رن هاتفه، أجاب

ليخبرني أن أحد الرجال التقط الإشارة. انتظرنا قليلًا حتى أتانا الخبر بالخلاص من رجال ماهر، وأن المكان مؤمن. مرة أخرى تدهشني سلاسة دخولي! صعدت لأجد امرأة عجوزًا تحمل حسين مرتجفة. حملت منها الصغير، وسألها هشام عن غرفة علي فأشارت إليها. طلبت من الرجال صرفها بدون أذى، واتجهت مع هشام إلى الغرفة المشار إليها. دخل هشام ودخلت خلفه، لأجد بسنت وافقة بكبرياء. اتجهت إلي لتحمل حسين، وتركتنا نازلة، في حين أن هشام أفقد علي وعيه، وأنفه في نفس اللحظة.

كان رجوع بسنت إلى المنزل هادئًا، وكان الجميع قد اتفق بعدم الكلام فيما كان! استقبلتها أمي بلهفة، أبي بحضن، ويحيى باستياء لم يخفِهِ! انزوت في غرفتها يومين، كان فيهما علي ضيفًا في جراجنا المتواضع، مقيدًا بالجنازير، عاريًا. تسلية يحيى الوحيدة أن يعذبه. كنت أنزل أنا وهشام بالتناوب؛ للتعبير عن غضبنا لما فعله بوجه بسنت بأسلوب يليق بنا! لم نقتله.. قررنا أن نتركه ليصبح حيواننا الأليف. اقترح يحيى أن نقطع يديه وقدميه ولسانه، ليقيد من رقبته فقط كالكلاب! كنا نناقش ما سنفعله باهتمام في غرفة أبي، عندما طرق الباب طرقًا ضعيفًا. خمنت أنها بسنت، وفتحت لأجدها.

– مساء الخير (قالتها بصوت مكسور).. أنا عايزة أقول لكم حاجة..

ارتجفت للحظة، واحتشدت في عينيها دموع أبت النزول..

– أنا آسفة.. أنا كان اختياري غلط من الأول، عرضكم كلكم للخطر..

صمت خيم علينا منصتين، في حين أن دموعها نزلت..

– أنا كنت طلبت منك يا بابا إن اللي أذى يحيى تكون نهايته بإيدي.. من فضلك.. علي السبب، وأنا مصممة إني أنا اللي أخلص عليه الليلة.

قالتها وتركتنا خارجة. صمت حاوطنا مرة أخرى، قطعه صوت فتح أبي لأحد أدراج مكتبه، مخرجًا منه مسدس..

– لا!

قالها يحيى بصوت مبحوح..

– أنا مش عايزه ميت! مش دلوقتي.. لازم يعرف اللي عمله الأول، لازم يعيش عيشة الكلاب الأول!

– كفاية يا يحيى!

قالها هشام : انت بتنسى إنه كان جوزها وأبو إبنها اللي هي نزلت تعرضه صعب، وهي هتعمله عشانك! عشان تثبت ولائها لينا.. كفاية!

نهض هشام ببطء : أنا هطلعلها دلوقتي.. لو قدرت تنفذ يبقي ماشي.. ما قدرتش يبقى أحسن.. نخلص احنا دلوقتي!

قالها وخرج من المكتب صاعدًا لها. شعرت بالكراهية الشديدة تجاه يحيى! متى صار قاسيًا إلى هذا الحد؟! هي تعرض قتله، وأنت تريد أن تدميها أكثر؟ نزل هشام بوجوم، ليؤكد أنها ستنفذ بنفسها!

نزلنا إلى الجراج في انتظارها. أتت بوجه جامد غير دامعة. مازال نصف وجهها متورمًا. لا أدري لماذا فكرت فجأة في شريف الطيب! لو أنه رأى وجهها الآن! لو أن علي سقط في يده! تُرى ماذا كان ليفعل؟

تناولت المسدس من أبي، ووقفت أمام علي المقيد العاري. شعر بنا فرفع رأسه محاولًا الفهم. لو أن عينها متورمة، فهو على الأرجح فقد بصره! اقترب أبي منها بهدوء: عايزك تفكري إن علي هو اللي.....

– بووف!

قبل أن يكمل جملته، كانت قد وضعت رصاصتها في رأس علي! بقي رأسه واقفًا لبضعة ثوانٍ، ثم تدلى على رقبته نازفًا على الأرض. وضعت المسدس ثانية في يد أبي، قبل أن تتركنا وتخرج بدون كلمة واحدة!

الفصل الثاني والثلاثون

العائلة!!

* * *

– مش هاممني انت بتفكر إزاي ولا قررت إيه! أنا مش هتجوز بنت عجلان ولا هتجوز أصلًا بالطريقة دي.

قالها مازن بتحدٍ استقبلته بضيق. لماذا يصمم دائمًا أن يكون مصدر إزعاجي؟ قررت أنني لن أتحمل الجدال معه. نهضت لأفتح باب المكتب، تاركًا إياه. بحثت عن هشام، فوجدته جالسًا في غرفة المعيشة. طلبت منه أن يجمع كل من بالمنزل. هذا سيكون اجتماع عائلي.

أتوا جميعًا. كانت بسنت صامتة كعادتها منذ مقتل علي. إلهام تحمل حسين الصغير النائم -لم تعد تتركه أبدًا منذ اختطافه- وهي تنظر إلي في محاولة تخمين ما سأقول. يحيى واجم. مازن يهز ساقه بتوتر وتحفز. هشام الوحيد الذي بدا هادئًا. لم يخيب نظرتي فيه أبدًا! قدرت أنه سيكون الأقدر على القيادة بعدي، ربما أكثر من يحيى.

رتبت أفكاري لأبدأ: انتم عارفين إني عمري ما قصرت في حماية أي حد فيكم، عمري ما سمحت لحد إنه يؤذيكم.. كنت بحارب الدنيا كلها عشان مصلحتكم.. دلوقتي جه الوقت اللي مش هقدر أعمل كده! الجيل الجديد اللي طالع، الجيل القديم اللي اتسعر! وصل الموضوع لحد بيتي! أختكم اتاخدت من أوضة نومها، بغض النظر عن الملابسات اللي حصلت، ده مالوش غير معنى واحد، هو إننا محتاجين حماية، محتاجين ضهر وفي أسرع وقت.. مفيش مجال للاعتراض ولا المناقشة.. في مشاكل جاية لإن في اتنين تلاتة مش راضيين عن تصفية عيلة الزين، وده معناه إن الدنيا هتخرب لو متحركناش بسرعة! أنا قررت إن يحيى هيتجوز بنت الطيب، ومازن هيتجوز بنت عجلان.. صحيح دي حاجة أنا كنت رافضها، لكني معنديش بديل.. كده محدش هيقدر يمسنا، على الأقل لغاية ما نتعافى كلنا من اللي حصل.

– أولًا: اللي بتقوله تهويل، كون اننا قدرنا نخلص من عيلة الزين، ده معناه إننا مش قليلين.. ثانيًا: انت متخيل إن الجواز ده هيضمنلك حماية؟ ليه مفكرتش إننا هنبقى تحت ضرسهم وهنضطر نتعامل باللي هما عايزينه؟

قالها مازن باستخفاف. كدت أجيب، إلا أن يحيى تكلم: إحنا قدرنا على الزين لإن الطيب كان عايز ده! هو مقدرش ياخد بتار جوز بنته لإن ماهر مش هو اللي قتله، ده غير إنه مفيش دليل ضده.. لو خد بتاره كان هيتعرف، وده معناه إنه بيخلف العهد بإن مفيش تعدي على الأسر، وإن مشاكل الشغل بعيد عن البيوت.. لولا إن الطيب كان عايز ينتقم، ما كناش قدرنا نعمل حاجة!

– والمطلوب إيه؟ أروح أجيب فستان الفرح والطرحة؟ ده مش أسلوب! أنا اخترت واحدة بحبها وهتجوزها!

قالها مازن صارخًا فلم أستطع الصمت..

– أعتقد إن آخر مرة قررت أسيب لحد فيكم حرية الحب والاختيار، كانت النتيجة إننا كلنا كنا في خطر!

لا إراديًا التفت مازن باتجاه بسنت وصمت! شعرت بالضيق لما قلته، لكنها كانت الطريقة الوحيدة لإخراسه! حككت رأسي بقوة..

– اسمع، مش انت لوحدك اللي هتتجوز، يحيى كمان في نفس اليوم.. وبسنت شهور العدة تخلص وهتتجوز شريف الطيب.

كانت القنبلة التي نزعت فتيلها وألقيتها في وجوههم، وانتظرت النتيجة. شعرت بعدم الرضا يبدو على يحيى ومازن وإلهام، بينما بدا هشام يغلي.. أغمضت بسنت عينها بقوة..

– أنا مش عايزة أتجوز...

قالتها بصوت ضعيف ولم تزد! أغضبني ردها حقًا، كنت أتوقع صمتًا وموافقة بعد ما كان. انفلتت أعصابي، لأجدني أعتصر ذراعها بيدي:

– انتي! انتي مالكيش الحق في الاعتراض! بعد اللي حصل مالكيش حق...

– عارفة!

قالتها بيأس : عارفة إني ماليش حق، عارفة إني غلطت، عارفه إني مش هقدر أرفع عيني في حد فيكم! عارفة لإن فيه حتة منه بتبات جنبي كل يوم.. متخيل إن ده سهل؟ متخيل إني في لحظة بتمر عليا ببص فيها في وشه من غير ما أفتكر اللي حصل؟ إني كنت سبب في كل مصيبة حصلت؟ بس مش هقدر.. مش هقدر.. مش هتحمل راجل تاني يحط إيده عليا.. مش هقدر..

قالتها منهارة في البكاء..

– أبوس إيدك يا بابا!!

احتشدت الدموع في عيني غضبًا!!

– فوقي!

قلتها وأنا أهزها بقوة..

– انتي بنت حسين صلاحي، انتي متتكسريش! مفيش فينا حد مبيغلطش، كل واحد فينا خد قرار غلط، وكل واحد فينا ندم عليه بس كمل.. كان غلطي إني رفضت أجوزك شريف في يوم من الأيام! شريف بيحبك.. مش شايف غيرك.. عيلة الطيب كلها هتبقى تحت رجليكي.. أنا بعمل ده عشانك!

كان صوتها قد بح من البكاء ولم تجد إرادتي تحركت..

– حسين هيتربى معانا هنا.. انتي هتعيشي ملكة في قصر الطيب، كأنك لسه متجوزة، وهتنسي كل اللي فات..

– أبوس إيدك يا يحيى.... ارجوك.... مش هقدر! يحيى!! أنا آسفة أرجوك..

قالتها مستعطفة يحيى، الذي قطب حاجبيه ولم يرفع عينيه إليها. شعرت بيد تخلصها مني، لأجد هشام احتواها في صدره، وأشار لأمي أن تصعد معها لأعلى. كان وجه يحيى جامدًا، ربما لأنها المرة الأولى التي يسمع فيها بموضوع شريف الطيب.
حككت وجهي بقوة لأداري دمعة نزلت لرجائها، هي حقًا لا تفهم، أنا أرى الأصلح لها!

نزل هشام..

– انت ازاي تعمل كده؟ ازاي تديها لشريف الطيب؟ ازاي تفكر في جواز ليها بعد اللي حصل ده؟ انت شايف إنها أصلًا وفقت على رجليها عشان تدور على بديل؟

– هتقف! وهتتجوزه! وانت ملكش إنك تتكلم يا.....

– يا إيه؟!

قالها وشياطين الغضب تتقافز أمام وجهه! لم أكن لأفكر فيها لحظة، لكنه ظن أنني سأفعل! يا عاجز!!! كيف ظننت بي يا هشام أنني قد أنطق بها؟ أعرف الأمر منذ سنوات أيها الأحمق وأدفنه بداخلي!! لماذا لا تفهم هذا؟ شعرت بالغضب يسري في عروقي لمجرد شكه أنني سأفشي سره! رفعت يدي لأصفعه، ليستقبلها بكفه ممسكًا بيدي بقوة..

– لا! أنا مش هقبل إنك تتكلم معانا كده!

تسارعت دقات قلبي وغمرني العرق. ترك يدي بهدوء وهو يرجع إلى كرسيه جالسًا..

– ما سمعتش رأيك يا مازن!

قالها ناظرًا إليه. بل مازن شفتيه بتوتر وهو يتحاشى النظر إليه..

– أنا شايف إنه اختيار مناسب بس التوقيت غلط!

لم أصدق ما سمعته ونظرت إليه مذهولًا!

– أنا سافرت معاه وهو فعلًا لسه بيحبها.. هو كبير العيلة بعد أبوه! على الرغم من إن ليه تصرفات متهورة، إلا إن أبوه ما بيردلوش طلب.. أعتقد إنه هيعمل المستحيل عشان يسعدها.

جلست وأنا أشعر أن ساقيّ ترتجفان. ما زلت لا أصدق ما قاله مازن! شعرت بسعادة حقيقية وأنا أرى ثمار عملي تطرح! مازن يقيم الأمور بعقله!!

– وانت يا يحيى؟ موافق على جواز بسنت لشريف؟ شريف الطيب؟ وبسنت؟

قالها بصوت مخنوق، مما جعلني أشعر أنه اكتشف أن معركته خاسرة! تأكيده لاسم شريف وبسنت أكثر من مرة؛ ليذكر يحيى بمكانة بسنت، وليذكره بما فعل شريف..

– أنا شخصيًا هتجوز أخت شريف، هستخسر فيه أختي!

قالها يحي بسخرية لمست فيها مرارة آلمتني..

– أنا عارف شريف عمل إيه..

قلتها بصوت حاولت أن أجعله هادئًا..

– جواز يحيى من اخته هيمحي أي أثر للإشاعة اللي طلعها.. جوازه من بسنت هيأكد إن الإشاعة دي مش صح! ده غير إنهم الاتنين هيعيشوا في نفس البيت وده اللي مطمني! بسنت هتكون تحت عين يحيى..

قلتها مشجعًا فلم يبد أي ردة فعل..

– خلاص..

قالها هشام : يبقى مبروك على الكل، بس نديها وقتها.

نظر إلي بثبات: براحة عليها يا بابا هي فيها اللي مكفيها!

انتهى الاجتماع بالشكل الذي أردته. موافقة، وإن كانت بلا اقتناع! لا بأس! هذا ليس ارتباط جامعي، فلا وقت للحب! صعدت إلى غرفتي، كان الوقت قد تأخر، فحاولت أن أنام بلا جدوى. إلهام بجواري بلا حركة، مما أكد لي أنها مستيقظة هي الأخرى! بينما كنت أشعر أنا بشعور حبة الذرة، أتقلب ذات اليمين وذات الشمال! الفارق الوحيد أنها تصبح فشارًا، أما أنا فأصبحت أكثر قلقًا!

سمعت صوت بكاء حسين.. صدى صوته كأنه يأتي من مكان بعيد. دام بكاؤه لتقفز إلهام إلى غرفة بسنت. كنت أشعر بإرهاق شديد تلاشى عندما سمعت صرخة إلهام تدوي باسمي! قفزت أنا الآخر لأجد غرفة بسنت فارغة، بينما إلهام تدق باب الحمام بهستيريا! أبعدتها وأنا أحاول فتحه. صوت بكاء الصغير يعلو ويختفي! أبعدني هشام الذي وجدته هو ومازن في الغرفة. اندفع ضاربًا الباب بكتفه ليخلعه من ثاني ضربة. شهقت إلهام بهلع، بينما اندفعت لأخرج الصغير من حوض الاستحمام الموضوع فيه، بينما كان صنبور الماء مفتوحًا لإغراقه! ازداد صراخه وسعاله طاردًا الماء خارج فمه. رحت أضرب ظهره برفق لأخرج أي ماء دخل إلى رئتيه..

– أخدتي إيه؟ (قالها هشام صارخًا).. أخدتي إيه؟؟!

قالها وهو يهزها بعنف. أعطيت الصغير لإلهام وهرعت إليها، كانت جالسة في ركن الحمام تسيل دموعها ومخاط أنفها. لم تجبه، فأمسكت رأسها بيدي، نظرت إلى عينيها.. ابنتي تحتضر! لقد رأيت الموت كثيرًا، حتى أنني أشم رائحته! أمسكت بها بقوة دافعًا إصبعين في حلقها؛ لأجبرها على إفراغ جوفها. تملصت بضعف، ثم راحت تسعل بقوة، قبل أن أشعر ببقايا حبوب لم تذب بعد في يدي! لا بأس، هي لم تهضمها بعد! لم تدخل دمها..

– دي خدت علبتين!!

قالها هشام الذي كان يبحث كالمجنون في الحمام عما ابتلعته. كان ممسكًا بعلبتين منوم في يده، مما أسقط في يدي! ما تقيأته لن يتخطى بضعة حبوب. حملتها حملًا وأنا أشعر أن قلبي يتراقص رقصته الأخيرة. نزلت درجات السلم راجفًا. كان يحيى على كرسيه يرمقني بذهول. ضممتها إلى صدري. وبينما يهرع بنا هشام إلى المستشفى، همست إلي: أنا آسفة!

قالتها وأغمضت عينيها بتعب! لا تموتي! سأقتلك لو فعلتي! وصلت للمستشفى ليستقبلنا طبيب شاب لتفريغ معدتها مما ابتلعته. وضع هشام علبة المنوم الفارغة في يده، قبل أن يهرع بها ليحسن التصرف. جلست بتعب وأنا أرمق دقات الساعة المعلقة أمامي بخوف! حقًا أنا خائف! دخلت إلى الحمام مرتعدًا وأنا أحاول ألا أبكي. أفرغت مثانتي وغسلت وجهي بالماء البارد.. اهدأ يا حسين، ستكون بخير! غسيل معوي وستنجو. خرجت لأجد يحيى ومازن قد أتوا. جلست صامتًا وأنا أتوقع الأسوأ. لو حدث لها شيء سأقتل نفسي! لن أنتظر عقاب يحيى! هل أعاقب بذنب ما مر به ماهر الزين قبل قتله؟

انتظرنا كثيرًا حتى خرج الطبيب ليخبرنا أنها نجت، وسيتم نقلها في غرفة لترتاح حتى الصباح. حمدًا لله! هاتفت إلهام لأخبرها، فحمدت الله باكية. أغلقت الخط وطلبت رؤيتها، فأخبرني هشام أن الطبيب أمر ألا يتم إزعاجها، إلا أن يحيى صمم على البقاء بجوارها. فتحت الباب برفق محاذرًا إزعاجها. بعض الخراطيم داخل أنفها الدقيق، وجه شاحب يليق بالموت! هززت رأسي نفيًا للفكرة وأنا أقترب بهدوء. كان يحيى يبكي! ينهنه كالأطفال ممسكًا بيدها. ستكون بخير صدقني، هي ابنتي، هي أقوى من هذا، هي نجت من محاولات قتلي لها طفلة، نجت من الحياة تحت سلطتي! ستنجو من أي شيء تتخيله.. مددت يدي لأتحسس شعرها المشوش، لأجد يد يحيى تمنعني!

– كفاية!!

قالها هامسًا دون أن ينظر إلي!

- متخافش عليها يا يحيى!

أغمض عينيه بقوة، عاضًا على شفته السفلى: عندك احنا التلاتة اعمل معانا اللي انت عايزه! أنا معنديش غيرها! مش هسمحلك تئذيها أكتر من كده!

قالها بغضب وقد علا صوته، فارتجف جسدها..

- هششششش....

قلتها مهدئًا إياها وأنا أضغط على يدها الأخري..

- خلاص يا يحيى.. أنا فعلًا غلطت لما ضغطت عليها، أنا هاخدها في سفريتنا.. انت هنقول على موضوع العملية بتاعتك اللي متفقين عليها، وهي تنسى اللي حصل.. هلففها العالم! هخليها تنسى! بس انت إهدا أرجوك!

شهق ليمنع المزيد من دموعه : صح! صح! (قالها هامسًا).. هناخدها سويسرا ولا فرانسا ولا النمسا.. هي بتحب التلج!

راقت له الفكرة، فراح يردد ما سيفعل وكيف سيسعدها. دائمًا ما كان يضايقني أسلوب يحيى في تجاهل أنني أبوها، ليأخذ الدور لنفسه، وإن لم أظهر ضيقي يومًا. كانت الوسيلة الوحيدة في أقصى درجات غضبه، أن ألقي إليه بهذه اللعبة ليلهو بها! حسنًا يا يحيى.. لتعني ببسنت كأنك أبوها، ولتتركني أفكر فيما هو آت.

عدت ومازن إلى الفيلا، وتركت هشام ويحيى معها. جلست في الحديقة متعبًا. أذان الفجر يرفع. صحيح أن أسود درجات السماء تكون وقت الفجر، لتعطي مساحة لنفهم معنى النور! شعرت بإلهام تجلس بجواري: حسين فين؟

سألتها هامسًا : نايم مع مازن

صمت دام قبل أن تقول بهدوء: أنا عارفة انت عملت إيه!

تأملت السماء الواسعة أمامي: عملت إيه؟

- انت فاكرني هبلة؟ رصاص يتضرب عليكم زي المطر انت الوحيد اللي تتصاب بطلقة واحدة، تقوم تاني يوم منها؟ تقبل علي وتفضله على يحيى؟ ماهر الزين رجالته مقدروش يموتوا يحيى؟ يدبحوه ويفضل عايش؟ ليه هو بعت عيل صغير وإيده بتترعش؟ ليه كل ده؟ رصاصة في دماغه كانت هتبقى كفاية! رجالة ماهر الزين في عز الحرب يدخلوا ياخدوا بسنت وابنها من غير ما يقتلوني؟ متقوليش كانت أوامر علي! دول مبياخدوش أوامر منه، وهو كان أتفه من إنه يسيطر عليهم! مازن يسافر فرنسا ويرجع سليم من غير خدش؟ أول ما يوصل الساحل يشوف بسنت ويكلمها من غير ما حد يكشفه؟! أنا مش غبية، وعارفة إنك ليك يد باللي حصل! من حقي تفسير يا حسين!

حككت عيني بقوة! ذكاؤها ما جذبني إليها، وإن كان دائمًا وأبدًا وبالًا علي! أعود بذاكرتي إلى ذلك اليوم..

- **علي هيموت، بس مش دلوقتي!**

قلتها بهدوء : هيموت لما بسنت تشوفه زي ما احنا شايفينه.

قلتها يومها ولم يغمض لي جفن! ظللت أفكر في طريقة أجعلها تراه كما أراه أنا، كما يراه يحيى. بسنت تأخذ صفه، ترى والدها قاسٍ متحامل عليه! حسنًا! كان علي أن أقلب الآية؛ لترى بسنت أباها الحنون يأخذ طلقة في صدره ليفدي زوجها! كان لقائي يومها مع ماهر الزين، قدرت أن علي لن يسأل عن اسمه ولن يتذكر شكله، وقد كان. فكرة إطلاق النار علينا أتت من يحيى. ماهر يحاول ابتلاع سوقنا، فخطط لحادث يبدو من فعل ماهر ليدينه ويعطينا فرصة للخلاص منه! الحقيقة أن هذا الحادث لم يكن تخطيط يحيى فحسب! بل أفتخر بأن ابني هو من خرب علاقة ماهر بأصدقائه، وأولهم ياسين الطيب! قتل زوج ابنته الطيب لم يكن ذنب ماهر، بل مات برصاص ميري حصل عليها يحيى وأطلقت من سلاحه! كان ذكيًا نشيطًا لامعًا، إلا فيما يخص بسنت! فكر أن الخلاص من علي بمثل هذا الحادث ليمر مرور الكرام.

قررت أن أغير الخطة مع الرجال في اللحظة الأخيرة، لأصاب برصاصة في كتفي، عوضًا عنها كاد يقتلني المعتوه وأصابت صدري!!

- **صبحي.. انت هتبقى ماهر الزين!**

قلتها لأحد رجالي المخلصين. صبحي لا يظهر كثيرًا بالشركة؛ لذا وجهه غير مألوف. هز رأسه بتساؤل وهو يحك شاربه الكث. شرحت له المطلوب، وكنت أراهن على أن انفلات الأعصاب سيجعل علي يرحل! جبان يهرب وقت الضغط! وقتها قابله صبحي على أنه ماهر، وعرض عليه خيانتي، لم يرفضها أو يقبلها، وإن أخبرني صبحي هاتفيًا أنه غير راغب في خيانتي! وأنه اضطر لتهديده:

- **خد بالك.. اللي معايا دايمًا كسبان.. واوعي تفتكر إني بتصرف لوحدي، حماك بقى مكروه وكلنا أخدنا قرار نخلص منه.. اختار الجنب الصح وأنا أوعدك إن مراتك واللي في بطنها بإذن الله هيكونوا بأمان.. ده وعد مني وعمري ما برجع في كلامي.. اسأل عن ماهر الزين وانت تعرف ان كلمتي سيف عليى رقبتي، ورقبة غيري!**

قالها صبحي نصًا ليدفعه لخيانتي، الخيانة التي كنت أتمناها!

سيقف مازن وهشام في وجهي أنا ويحيى! أعرف ذلك، فوجب علي أن أقلبهم ضده! ضممته إلينا ليغضب يحيى وينصرف. تشاجرت معه في اليوم التالي، طاردًا إياه من المنزل لينال تعاطف الجميع، وينال علي كراهية الصدور، باعتباره سببًا لإبعاد أخيهم المحبوب!

في اليوم التالي، طلبت لقاء يحيى وجلست معه منفردًا..

- **احنا هنلعب لعبة، كلنا هنستفيد منها! أنا هرتاح، هفتحلك سوق، هشام هيبقي دراعك اليمين، مازن هيبطل زنه، وهنخلي بسنت هي اللي تطلب إننا نخلص على علي!**

قلتها شارحًا ما سيكون بهمس، كان يجب أن أدفع علي لخيانتي خوفًا! ليلقي بنفسه في حضن عدوي... عليه أن يرى وجهًا قبيحًا! على أن أحفز قلب هشام وعقل مازن! المرحلة القادمة تحتاج تماسكنا.

خرج يحيى غاضبًا، بينما أصرخ فيه أن يتوقف.. استدار إلي ليجد الصفعة تستقر على وجهه.

لم أتخيل أن أؤذي أحد أبنائي يومًا، حتى وإن كان بالخداع، لكن الحرب الدائرة حولي بالداخل والخارج دفعتني للمغامرة!

- **أيوه يا يحيى، علي جاي دلوقتي ومعاه تلاتة عشان ياخدوك، ما تجيش سهل عشان تبقى مبلوعة! ومتنساش تاخد الحباية اللي اديتهالك عشان متحسش بحاجة.**

خفت عليه بجنون، وأنا أوقن أنه بخير! كان يشغل بالي في نفس الوقت أمرين؛ أن أتأكد من أن علي يخشاني لدرجة خيانتي، وأن هشام سيخطط لقتلي، هذا يقيني! يحيى سيوقفه ويكفيني هذا. كان يجب أن أتأكد من وحدتهم، وإن كانت ضدي مؤقتًا!

- **آلو.. أيوه يا يحيى، بتعمل إيه؟.. بتمشي رجلك فين يا متخلف! اقفل الهباب ده واقعد في الكرسي.. أمك خرجت ومية في المية جيالك.. إوعى تشك لحظة في حاجة، متديهاش عقاد نافع.**

مررنا بفترة هدوء نسبي في المنزل من أجل بسنت، تأكدت فيها من نجاح خطتي وخيانة علي، تأكدت فيها أيضًا من أن خطتي الخارجية تمر بسلام. اسم ماهر الزين راح يتردد مصحوبًا باللعنات على أنه يحاول ابتلاع الجميع. حالة استياء عامة تجاهه، جعلتني أدرك أنني أسير على الطريق الصحيح!

- **آلو.. أيوه يا دكتور جميل.. خلص بسرعة من غير ما تنذيه! لازم الموضوع يبان طبيعي للرجالة اللي هيرجعوا دلوقتي.. خد بالك كويس وخليه سطحي.. خيطه بعد كده كأنه عميق مش مشكلة.. اديهولي..**

أيوه.. خايف؟ تمام.. أنا عارف إنك راجل يا يحيى.. اتطمن، جرح رقبتك هيبقى سطحي، بس زي ما اتفقنا هتبقى محاولة قتل من ماهر ليك.. متقلقش اخواتك هيلحقوك على المستشفى وأنا وراهم.

إنها الحرب الدموية التي أزهقت فيها أرواح نساء وأطفال عائلات كبرى، إلى أن توقفت على إثر اتفاق وعهد بين شركاء السوق، لا مجال لدخول نزاعات العمل إلى منازلنا. كان عليّ أن أوحي أن ماهر نقض العهد؛ ليصير الطريق مفتوحًا أمامي لتصفيته وأخذ نسبة من سوقه تناسب مجهودي في إزاحته! كانت ولادة بسنت قاسية، وهلعي على فقدان يحيى بيدي مرعب للحد الذي داهمتني أزمه قلبية معه، أزمة أخرى كعادتي مؤخرًا، جعلتني حبيس المنزل مع حفيدي وهشام. أسر إلي دكتور جميل بأنه يشك بأن ظروف ولادة بسنت لم تكن طبيعية! الانقباضات كانت أسرع من معدلها الطبيعي، مما جعله يشك أنها تناولت شيئًا ليسرع من عملية إنجابها! بحثت في غرفتها وجمعت شيئًا من كل الأدوية التي وجدتها لأعرضها عليه، أخبرني أن أحدها بالفعل يساعد على انفتاح الرحم فيما يشبه الطلق الصناعي، وأنها كادت تفقد حياتها بسببه! أثار غضبي حتى الجنون وإن تمالكت أعصابي حتى خروج يحيى. أخبرني صبحي أن علي يريد اختطاف ابنه، ثم عدل الأمر ليكون اختطاف ابنه وزوجته! اتفقنا على موعد خروج يحيى من المستشفى ليكون يوم التنفيذ. من سيخطتفهم سيكون عليه ألا يؤذيها هي أو الرضيع أو إلهام، وأن يكونوا بالعنف المطلوب أيضًا كي يبدو الأمر واقعيًا!

كانت زيارتي الأولى لياسين الطيب في وقت الأزمة مثمرة، أثبت فيها هشام قدرته على إدارة الحديث، السيطرة على الموقف لحسابه من جانب، وأثبت مازن قدرته على السيطرة على نفسه وإحكام عقله من جانب آخر، وإن لم يكن لقائي الأخير معه!

– **بنتك هنادي أنا عايزها ليحيى ابني، أكيد مش هتفضل أرملة للأبد!**

ابتسم ياسين بدبلوماسية:

– هنادي مفاتش على موضوع جوزها عشر شهور، البنت حزينة وأنا هديها وقتها.

– وانت ليه متخيل إننا هنديك بنتنا وانت رفضت تدينا بنتك؟

قالها شريف بغل. فطنت إلى نبرته..

– ومين قال إني رافض؟ بنتي في حكم الأرملة هي كمان، واللي هيتقدملها من أي عيلة أشوفه مناسب ليها، هديهاله! بس موضوع موت جوزها ده قدامه شوية وقت.

تراجع ياسين للخلف وهو يتأملني بتفحص، في حين أن شريف قال:

– في الحالة دي احنا موافقين.. جوازة هنادي قدام جوازي من بسنت.

طرق ياسين بأصابعه على المائدة التي تجمعنا محذرًا، فزفر شريف بقوة..

– نخلص من موضوع ماهر ولينا كلام تاني!

خرجت وأنا أشعر بانتصار تحقق، ويقيني أن شريف سيفعل المستحيل لينالها.

– أيوه يا شريف.. خد بالك يا ابني من نفسك.. يهمني إنك ترجع كويس، انت ومازن، يهمني إنه هو كمان يرجع كويس.. انت متعرفش بسنت متعلقة بيه إزاي! خد بالك متجيبلوش سيرة عن أي حاجة لأني لسة ما فاتحتهومش!

عاد مازن مظفرًا، غير عالم أن شريف فرش له مدخل قصر الزين زهرًا! كنت أعرف يقينًا أنه سيحاول إمالته إلى صفه، ما لم أتخيله أن يفلح إلى هذا الحد!

– أيوه يا صبحي، خلي رجالتك يخفوا الحراسة النهارده.. مازن سافر لبسنت وأنا عايزه يقابلها.

كان يحيى غاضبًا على بسنت بشدة لاقتراحها الانفصال عنا. طلبت منه الصبر لأن خطتنا تسير في الاتجاه الصحيح. عاد مازن ليخبرنا همسًا بأن علي ضرب بسنت وشوه وجهها! أعرف مازن المائل للتهويل، لكن هذا لم يمنعني من الإصابة بالجنون! هل أنا غبي لهذا الحد؟ كاد يقتلها بدس دواء لها، لماذا ظننت أنه سيتغير ولن يسيء معاملتها؟ أخبرتهم بما قال دكتور جميل، وعن الدواء الذي وجدته! فطنوا إلي أنني فتشت غرفتها وإن وجموا جميعًا. قرر هشام الذهاب مع مازن ليأتوا بها، بينما اختليت بيحيى، ليؤكد بغل حقيقي:

– **خليها يومين تتربى!**

عندما سمعت طرقها على الباب، لم أتخيل أنها ستطلب أن تنهيه بنفسها! كنت أرجح رأي يحيى بتحويله إلى حيوان أليف في الجراج، إلا أن هشام لفت نظري لمدى الألم الذي تمر به! اندهشت لهذا حقًا! توقعت فور تأكدها من خيانته، أن تشفى من حبه في لحظة. لم تمنعني دهشتي من شعوري بالسعادة الغامرة عندما أطلقت رصاصتها عليه، رصاصة جعلتني أشعر بالخلاص!

– جالك قلب تعمل فيها كده! أنا واثقة إنك عملت حاجة عشان تظهر خيانته! هو خاين ووسخ وابن كلب! لكن توصل بيك القسوة إنك تجبرها على قتله وتقعد تلومها بعدها؟ أنا مش هسكت على ده يا حسين! وبسنت لازم تعرف إنها ما غلطتش في حد، وعمرها ما هتسامحك لما تعرف الحقيقة!

– ومازن كمان عمره ما هيسامحك لو عرف الحقيقة..

قلتها بهمس فصمتت. أمسكت بيدها بين يدي برفق، وأنا يقيني أنها تبكي..

– أنا عملت المستحيل عشانكم، ما تهدميش كل حاجة.. انتي تعبانة ومحتاجة تنامي..

قلتها وطبعت قبلة على يدها، وتركتها صاعدًا إلى غرفتي. كنت أفكر في أنني نجحت. غدًا سيتزوج يحيى، بعدما درسنا سويًا شخصية هنادي ووجدناها الأنسب له

قبل أن نقتل زوجها! غير متطلبة، غير لحوح، صامتة، ندر وجودها! استطعت أن أجبر هشام على البقاء في دائرة الضوء، بل وتحريك الأحداث. استطعت أن أرى من مازن وجهًا جسورًا يقتل دون أي اعتبار سوى مصلحة أسرته! غدًا سيعتاد مي، فهي متقلبة المزاج وستصيبه بصداع يجعله غير قادر على تذكر الماضي. غدًا تتزوج بسنت من شريف. كان أفضل المقترحين حقًا وإن كان أقل من أتمناه لها. سيسعدها وستنسى مع الوقت ما كان! غدًا ستنهزم إلهام أمام متطلبات رضيع سترعاه، لتنشغل تمامًا به عن أي تساؤلات أخرى!

أغمضت عيني بهدوء وعلى وجهي ابتسامة واسعة. شعرت براحة حقيقة على مستقبلهم جميعًا، وعلى مستقبل هذه العائلة!..

تمت..